Arabian Gulf Journal of Humanities and Social Studies

ISSN: 3080-4086

الإصدار الرابع - العدد االحادي عشر || تاريخ الإصدار 2026-02-20

المحددات الاجتماعية ودورها في تشكّل ذهنية الإنسان اليمني

Social Determinants and Their Role in Shaping the Yemeni Mindset

أحمد عباس الملجمي

Ahmed Abbas Almaljamie (Author)

قسم تاريخ وحضارة، كلية الدراسات الإسلامية، جامعة السلطان زين العابدين، مدينة ترنجانو، ماليزيا

ORCID No: 0000-0002-4392-2027

DOI: https://doi.org/10.64355/agjhss41123

مجلة خليج العرب للدراسات الإنسانية والاجتماعية || هذه المقالة مفتوحة المصدر موزعة بموجب شروط وأحكام ترخيص مؤسسة المشاع الإبداعي(CC BY-NC-SA)

الملخص:
تهدف هذه الدراسة إلى استكشاف دور المحددات الاجتماعية - بما في ذلك التفاعلات والعلاقات الاجتماعية، والتنشئة الاجتماعية، إضافة إلى محددات أخرى كالهجرة والاغتراب - في تشكّل ذهنية الإنسان اليمني، مع محاولة الإسهام في بناء إطار تفسيري يساعد على فهم الذهنية اليمنية وتحليل آليات تشكّلها. ولتحقيق ذلك، اعتمدت الدراسة منهجًا سوسيو-أنثروبولوجيًا لتحليل تأثير المحددات الاجتماعية في نشأة الذهنية اليمنية وتكوينها، كما استعانت بالمنهج التاريخي من خلال تتبّع مسارات تشكّل هذه الذهنية في سياق التاريخ اليمن، وتُظهر نتائج الدراسة أن منظومة المحددات الاجتماعية أسهمت في تعزيز روح التعاون والعمل الجماعي لدى الفرد اليمني، وأن أثرها ما يزال ممتدًا حتى الوقت المعاصر بما يدعم استمرار بنيتها ووظيفتها في تشكيل الذهنية. كما تبيّن أن التعاونيات الزراعية والبيئة المحيطة بالجماعة اليمنية تركتا أثرًا بارزًا في تشكيل سلوك الفرد والمجتمع، بما يبرر توصيف هذه الذهنية بـ«الذهنية العملية» أو «الذهنية التعاونية». وتخلص الدراسة إلى أن هذا النمط الذهني كان ذا أثر حاسم في صياغة بنية العلاقات والتفاعلات الاجتماعية، وأنه أفرز - بوصفه سلوكًا اجتماعيًا - ذهنية يمنية نشطة تتسم بروح العمل، انعكست على السمات الشخصية والاجتماعية في المجتمع اليمني.

الكلمات المفتاحية: الذهنية اليمنية، الأنثروبولوجيا اليمنية، المجتمع اليمني، الذهنية، العقلية.

Abstract:

This study investigates the role of social determinants - including social interactions and relations, socialization, as well as other determinants such as migration and expatriation - in shaping the Yemeni mindset. It also seeks to contribute to the development of an interpretive framework that supports a deeper understanding of this mindset and the mechanisms through which it is formed. To achieve these aims, the study adopts a socio-anthropological approach to analyze the influence of social determinants on the emergence and formation of the Yemeni mindset, and it also draws on the historical method by tracing the trajectories of this mindset within the broader context of Yemen's history. The findings indicate that the constellation of social determinants has reinforced a spirit of cooperation and collective work among Yemenis, and that its effects continue into the present, sustaining its structure and function in shaping the mindset. The study further shows that agricultural cooperatives and the communal environment surrounding Yemeni groups have had a pronounced impact on shaping individual and societal behavior, which justifies characterizing this mindset as a "practical mindset" or a "cooperative mindset." The study concludes that this mental pattern has played a decisive role in structuring social relations and interactions and, as a social practice, has produced an active Yemeni mindset marked by a strong work ethic - reflected in personal and social characteristics within Yemeni society.

Keywords: Yemeni mindset; Yemeni anthropology; Yemeni society; mentality; cognition.

مقدمة:

إن دراسة ذهنية المجتمعات تُعتبر من المواضيع المهمة والعميقة في الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية، حيث تكمن أهميتها يمنياً في المساهمة في بناء أُطر نظرية ومعرفية لفهم الواقع الاجتماعي اليمني، وفهم البناء الذهني للشخصية اليمنية، والذي ما يزال يفتقر للدراسات التي تتناول سمات وخصائص المجتمع. إنه في سياق دراسة المجتمعات البشرية، يمثل فهم الذهنية أو العقلية الخاصة بمجتمع معين أحد الأبعاد الأساسية التي تساعدنا على تفسير سلوكياته الاجتماعية والثقافية والتاريخية، بوصف الذهنية هي البنية الفكرية للمجتمع، والتي تشكَّل رؤيته للعالم وطريقة تعامله مع مختلف القضايا من حوله. في هذا الإطار، تأتي أهمية البحث الذي يحاول تلمس المحددات الاجتماعي ودورها في تشكَّل الذهنية لدى الإنسان اليمني، كيف تظافرت مجموعة من المحددات والعوامل في نشأتها، وكيف كُرست تلك الذهنية عبر الأجيال، حتى غدت طريقة تفكير ونمط عيش في حياة ذلك المجتمع، وذلك هو الإشكال الذي سوف يعالجه البحث، والذي يفترض أن تلك الذهنية لاتزال حتى اللحظة تمارس فعلها فيه وتحكمه، وهي من شكَّلت حضارته الأولى، ومجتمعه الأول، ولغته الأولى، وهي ذاتها لاتزال تؤثر في حياته المعاصرة، في عقله السياسي، وحياته الاجتماعية والثقافية والدينية والاقتصادية. تمثل ندرة الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية التي تناولت الإنسان والمجتمع اليمني من أهم الإشكالات التي

تواجه الباحث في دراسته على مستوى الدراسات العامة، فما مقدار الصعوبة إذا كنا نتناول دراسة من قبيل العقلية أو الذهنية؟! ذلك أن هذا النوع من الدراسات لم يُطرق بعد على صعيد الدراسات الاجتماعية اليمنية، ولكن هناك مجموعة من الدراسات السابقة التي وإن لم تتناول الذهنية اليمنية بالتصريح، فقد تناولت محددات اجتماعية مهمة من قبيل البناء الاجتماعي، والعلاقات الاجتماعية، وعلاقة الإنسان بالأرض، وقوى ونمط الإنتاج، والهوية والحياة الاجتماعية، ولهذا جاءت هذه الدراسة لتتناول المحددات الاجتماعية ودورها في تشكل ذهنية الإنسان اليمني.

مشكلة الدراسة:

رغم أن المجتمع اليمني يتميز بتركيب اجتماعي معقد وتاريخ طويل من التغيرات والتحولات، إلا أن الدراسات التي تناولت تشكّل الذهنية اليمنية من منظور سوسيولوجي وأنثروبولوجي لا تزال نادرة. كما أن معظم الأدبيات ركزت على البناء الاجتماعي أو العلاقات القبلية أو الهجرة بمعزل عن تحليل أثرها التراكمي في تشكيل الذهنية الجمعية. من هنا تبرز إشكالية هذه الدراسة في محاولة الإجابة عن السؤال: كيف أسهمت المحددات الاجتماعية (التنشئة، العلاقات، الهجرة، البناء الاجتماعي) في نشأة وتطور الذهنية اليمنية؟ وما هي الآليات التي من خلالها تكرست هذه الذهنية عبر الأجيال؟ وما أوجه التميز أو الخصوصية في الذهنية اليمنية مقارنة بسواها من المجتمعات العربية؟ إن نظرة متفحصة في سياق عنوان الدراسة (المحددات الاجتماعية) للواقع الاجتماعي كالتنشئة الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية والبناء الاجتماعي والهجرة يمكنها أن توفر إشارات مهمة في سبيل تحديد سمات الذهنية العامة التي يشترك فيها أبناء المجتمع من الناحية الاجتماعية، ولهذا يمكن تلخيص مشكلة الدراسة في السؤال الآتي: **ما هو دور المحددات الاجتماعية في نشأة وتشكل الذهنية لدى الإنسان اليمني؟**

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى تحقيق الآتي:

- الإسهام في رسم إطار تفسيري لفهم الذهنية اليمنية.
- بيان أهمية المحددات الاجتماعية ودروها في تشكّل ذهنية الإنسان اليمني.

سبب اختيار الموضوع وأهميته:

مما يجدر الإشارة به في سياق أهمية البحث، أن اليمن قديما كانت سباقة في نشأة الممالك والدول والحضارات، ومثلت همزة وصل لقرون كثيرة بين الشرق والغرب وتقاطع الطرق الدولية، وهي أمة محاربة؛ فعلى أرضها قامت الكثيرمن الصراعات والدول والممالك، ومنها خرج سواد الجيوش العربية الفاتحة إلى أصقاع الأرض شرقاً وغرباً، وهي أمة عُرفت بالتجارة وكان لها دوراً مهماً فيها، وعُرفت أيضاً أنها أمة زراعية، وأرض سكنها البدو والحضر، عَرفت القرية والقبيلة والمدينة، والأنظمة السياسية الملكية والجمهورية، كل هذا التنوع والتداخل شكَّل تلك الذهنية التي نسعى للتعرف علي محددتها الاجتماعية في دراستنا. ولأن دراسة ذهنية المجتمعات تعتبر من المواضيع المهمة والعميقة في الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية، تأتي أهمية البحث يمنياً، كالتالي:

✓ الأهمية العلمية:

- أن الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية التي تناولت المجتمع اليمني لاتزال شحيحة جدا، ويأتي هذه البحث في سياق المحاولة والاسهام في بناء أُطر نظرية ومعرفية وتفسيرية لفهم الواقع الاجتماعي اليمني، ناهيك أن نصيب دراسات الذهنية أو الشخصية أو العقلية التي تناولت سمات وخصائص المجتمع اليمني تكاد تكون غيرموجودة.
- يُحلل البحث دور العوامل والمتغيرات الاجتماعية الحاكمة التي ساهمت في تشكّل الذهنية اليمنية والتي وسمت المجتمع اليمني وحياته بسلوك اجتماعي مشترك.
- أن موضوع الدراسة يُنسب إلى ما يسمى بـ "الدراسات البينية" التي تقوم على نهج التعاضد المتبادل بين الحقول العلمية، حيث أن موضوعها يقتضي الانفتاح على علوم النفس، والاجتماع، والأنثروبولوجيا، والتاريخ، والآداب، واللسانيات وهذا من شأنه أن يساعد في توطين المعرفة وتخصيب البحث الاجتماعي والتاريخي وبناء تصور لمحاولة الإحاطة بالظاهرة الإنسانية من جميع جوانبها .

✓ الأهمية العملية:

- من خلال تبيان الدراسة لمعالم الذهنية اليمنية والمحددات الاجتماعية لتشكلها، يمكن أن يساعد ذلك في وضع الخطط الإنمائية وبرامج التأهيل والتعليم والتثقيف، واختيار السياسات التي تتوافق مع هذه الذهنية بما يسهم في تعزيز التنمية والبناء المجتمعي.

- يمكن أن تُسهم الدراسة في معرفة البُنيات الاجتماعية والنظام الاجتماعي والمحددات العامة التي تؤثر في تشكّل الذهنية اليمنية، والذي من شأنه أن يساعد ويخدم الجهات والمؤسسات الرسمية والاجتماعية والتعليمية في تنويع وسائل البناء الذهني الاجتماعي والسلوكي وأنماط التفكير لدى المجتمع اليمني.

منهج الدراسة:

في إطار دعوة من "المنهج إلى التناهُج" (حبيدة، 2018)، التي تنادي بها مدرسة الحوليات والتي تشدد على ضرورة دراسة الظواهر الاجتماعية من خلال مقاربات متعددة التخصصات، بما يعني شمول وإحاطة الظاهرة الاجتماعية بكل نواحيها وتلاقح مناهج الأبحاث فيما بينها. فإن طبيعة ظاهرة بحثنا، ذو إشكال يفرض علينا الاستفادة القصوى من ذلك التعدد، ولهذا اعتمدت الدراسة لتحقيق أهدافها المنهج **السوسيو- أنثروبولوجي** لبحث بيان المحددات الاجتماعية ودورها في نشأة الذهنية اليمنية، هذا المنهج لا يقتصر فقط على دمج أدوات ومفاهيم من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الثقافية وعلم النفس الاجتماعي فحسب، بل يسعى أيضًا إلى فهم أعمق للديناميات الاجتماعية والثقافية التي ساهمت في تشكّل ذهنية المجتمع اليمني. إن هذا الدمج المنهجي المتعدد يسمح بالتعاطي بمرونة مع أدوات بحثية واسعة لا تفرض المنهج كمنهج على الموضوع، وإنما تساعد في محاولة وإثراء وتقديم رؤى جديدة وموضوعية من شأنها بناء نماذج تفسيرية للظاهرة الاجتماعية. كما استخدمت الدراسة المنهج التاريخي، من خلال تتبع تشكل الذهنية اليمنية في التاريخ اليمني، والعودة إلى النقوش والأثار والوثيقة التاريخية الدالة على تلك التشكل.

المبحث الأول: المدخل النظري للدراسة الذهنية:

في بادئ الأمر استوقفني الشح المعرفي لمفهوم "الذهنية" كلفظ لغوي مجرد قبل أن يكون مفهوما اصطلاحياً في دراسة الذهنيات، ومن خلال الوقوف على العديد من الدراسات والمعاجم العربية في السعي للحصول على تعريف لغوي أو اصطلاحي للمفهوم، وجد الباحث أن معظمها جعل لفظ الذهنية مقابلة للعقلية (الذهن مقابل العقل) وكأنهما الشيء ذاته، غير أن بعض من تلك الدراسات تشير إلى الذهنية حينما تريد التعبير عن مفهوم أدق من العقلية لكنها لا تبينه أكثر من ذلك. فعلى سبيلا المثال لا الحصر، ومن خلال الحقل التداولي للمفهومين في اللغة المحكية؛ يقول المتكلم: تبادر إلى ذهني ومن النادر أن يقول تبادر إلى عقلي، ويُقال ترسخ في ذهني، وعلق في ذهني، وأثار ذهني، وغاب عن ذهني، وصفى ذهني، ويقال عند مناقشة الأفكار عصف ذهني، ويقال أيضاً: شارد الذهن، أو سارح الذهن. وفي اللهجات الدارجة نقول: هل أنت ذاهن، بمعنى هل تعلم ما تقول؟، ونقول: ذَهُنَ فلان بمعنى وعى ما يقول. والملاحظة التي نسجلها في هذا السياق أن لفظ (ذهن أو ذهنية) في اللغة المحكية حسب فهمنا يأتي في سياق محاولة المتكلم إيصال معنى يُدلل عما هو أدق داخل بنية العقل أو المنظومة العقلية، وكأن العقل جسم التفكير والذهن تلك الطاقة التي تمد العقل، والملاحظ أن لفظ الذهن هو المتداول حينما نريد الكلام عن العمليات العقلية أو مدح وذم وظائف العقل. ولهذا يذكر أوس بن حجر التميمي (620م) تثاقله لانكسار رجله وضعف قوتها (نجم، 1979، ص 35):

أَنُوءُ بِرِجْلٍ بِهَا ذِهْنُها وَأَعْيَتْ بِهَا أُخْتُهَا الغَابِرَةْ

وفي وصف العقل حينما نريد التأكيد على نباهته نقول: ذهن متقد، ولكن حتى لا نقع في خطأ يتطلب جُهد معجمي للتفريق بين المفهومين (الذهنية والعقلية) ولأن العقلية تؤول إلى الذهنية على الأقل كما نجده معجمياً، فإن هذه الدراسة سوف تنظر إلى المفهومين بوصفهما الشيء ذاته، على افتراض أن الذهنية هي العقلية كما وردت على الأقل في المدونة العربية. الأمر الآخر الذي يجبرنا على عدم التفريق بين المفهومين القصور اللافت في الدراسات العقلية وتاريخ الذهنيات في المدونة العربية، بوصفها أي – الذهنيات – في المدونة الغربية نحت منحاً جديداً، وتحولت من مجرد عناوين على صفحات الحوليات إلى ما يسمى حالياً بـ (التاريخ الجديد) دراسة المجتمعات والإحاطة بها نفسيا واجتماعيا واقتصاديا. إلا أن ذلك لا يمنع من التطرق للتعريفات التي تناولت الذهن والذهنية والعقلية والشخصية، حتى يتبين للقارئ والجماعة العلمية.

ما الذي نريده ونقصد بالذهنية.

أولاً: مفهوم الذهنية وتمثلاتها في حقل الدراسات الاجتماعية.

<u>الذهنية أو العقلية لغة:</u>

عند الفراهيدي جاء الذهن بمعنى الفهم والعقل، والذّهن: هو حفظ القلب (المخزومي، السامرائي، 1982)، وجمعه أذهان، وعند الجوهري الذهن يعني الفطنة والحفظ، والذّهن من الناس الفطن الذكي (نور الدين، 2005). والذهن: قوة النفس الناطقة، بها يحصل تعقل المعاني، وتجريد صور

الأشياء، وعند الحارث المحاسبي (835م) "إذا حضر عقلك زكا ذهنك، وإذا زكا ذهنك قويت على طلب الفهم، واستبان فيه اليقين وصفا فيه الذكر، وقوي فيه الفكر" (القوتلي، 1971، ص 319). والذهن عند الجرجاني (1983) رديف العقل، وهو قوة النفس والاستعداد التام لإدراك

العلوم والمعارف بالفكر (ص 108). ويسمى عند السجستاني (1974) إدامة نظر العقل إلى ما حصله وتعهد وحفظه عند أقوام: ذِهْناً (ص 351).

وللناظر فيما سبق؛ المعنى الدلالي للفظ الذهن (الفهم، التجريد، التعقل، التفطن، القوة، الاتقاد، التنبه) أن يلاحظ أنها وظائف وصفات مكتسبة تُشير إلى البُنية الفوقية للعقل، الجهاز المفاهيمي للعقل، فبعيدا عن كون العقل (بوصفه إشارة إلى أداة للتفكير) فإن هذه البنية الفوقية تُشير إلى تشكَّل المنظومة الذهنية (أسلوب أو أنماط التفكير)، مجموعة الفلاتر التي تحدد صياغة تصورات العقل لما حوله وفقاً للتجربة والبيئة المحيطة التي انعملت في العقل، هذا على الأقل ما فهمناه من تلك الألفاظ.

نجد هذا التفريق جلياً عند الجابري في سياق تناوله العقل بوصفه أداة إنتاج وليس بوصفه محتوى (منتوج) يتساءل الجابري هل يعني ذلك أن العقل خالي من المحتوى إذا كان مجرد أداة إنتاج؟ يُجيب الجابري أوليست كل أداة - مهما صغرت - عبارة عن جهاز أو بنية، ثم ألا يمكن التمييز في كل أداة أو جهاز بين الفاعلية وما منه قوام هذه الفاعلية [....] فإذا كان الفأس فاعليته الحفر، فإنه يستمد قدرته على الحفر من أجزائه وتركيبته وأسلوب استعماله (الجابري، 1984، ص15). وإذا كان العقل كما يسميه الجابري الأداة المنتجة للفكر، فإن الذهنية هي الأسلوب والبنية (مجموعة الخوارزميات الحاكمة) التي تحدد نوعية ذلك الإنتاج الذي يتمثل في سلوك الجماعة.

أما العقل في المعجم الوسيط "فهو ما يكون به التفكير والتمييز (مجموعة من المؤلفين، 1972). وجاء في لسان العرب عن العقل أنه: الحجر والنّهي، ضد الحمق والجمع (عُقول) والعاقل هو الجامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه، وقيل العاقل من يحبس نفسه ويردها عن هواها (ابن منظور، 2003، ص233). وهذا يفسر طرح الجابري بوصف العقل أداة للتفكير، ولهذا فهو في المعجم الوسيط ما يكون به التفكير، وهو مأخوذ في لسان العرب من عقل البعير وهي الأخرى أداة لمنع البعير من الهرب والعقل هو أداة لحبس النفس وردها عن هواها.

في اليونانية القديمة يتخذ العقل بعداً إبستيمياً محضاً فالكلمة (لوغوس Logos) بعد انفصالها عن الميثوس (الفكر الأسطوري) تحمل بين ثناياها معاني العلاقة الجدلية، أو لحظة اكتشاف العقل (فرنان، 2008)

وفي اللغة الإنجليزية الوسطى تطورت كلمة (gemynd) التي كانت تعني قديما (بالذاكرة) إلى أشكال مثل: "mind(e),"، "münd(e),"، "mend(e)" هذه الاختلافات وسعت تدريجياً نطاقها لتشمل: الإدراك والتفكير والشعور وغيرها من الوظائف المعرفية (Jeremy, 1996).

أما الأصل المعجمي لكلمة العقلية فيعود إلى اللاتينية Mens وMentis وهي تعني النّفس أو الروح Esprit والعقلية بالمعنى الاشتقاقي هي خاصية ما هو عقلي (وطفة، 2007). وفي المدونة الحديثة تُشير مفردة (Mentality) إلى العقلية أو الذهنية و(Mind) بمعنى العقل، وعرفها (أيزنك-Eysenck) بأنها "الذهنياء" وزانها ككبرياء، وهي برأيه تشير إلى مجموعة الاتجاهات والتصورات المترابطة نحو بعض الموضوعات والأشخاص (شعبان، 2002). ولتفريق بين المدونة العربية والغربية معجمياً يمكن ملاحظة أن ما تنقله اللغة العربية المعجمية عن العقل يرتبط دوماً بالذات وحالاتها الوجدانية وأحكامها القيمية فهو كما رأينا عقل وقلب وفكر ووجدان "نظرة معيارية". أما ما تنقله اللغة الأوروبية فالعقل مرتبط دوماً بالموضوع، فهو إما نظام الوجود وإما إدراك هذا النظام، أو القوة المدركة "نظرة موضوعية" (الجابري، 1984، ص31).

الذهنية أو العقلية اصطلاحاً:

في حقل العلوم الاجتماعية والتاريخية وبعد ظهور تخصصات من قبيل السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية والتأويلية وعلم الإدراك والشخصية، باتت مفاهيم كـ(العقل والشخصية والذهنية) في الكثير من الدراسات تشير تارة إلى ذات الشيء كما نجدها في الكتابات العربية المعاصرة على الأقل عند الجابري وعلي الوردي والمنصف وناس ومحمد الطالب وحسن حميد. ففي دراسته نقد العقل العربي، لم يتطرق الجابري لوضع فروق بين الذهن والعقل باعتبارهم في الثقافة العربية ذات الشيء، ولذا نجده يستدل بألفاظ الذهن في تعريفاته لمفهوم العقل، وفي المقابل نجده يفرق بين مفهوم العقل والعقلية، بوصف الأول يستند إلى المنهج العلمي والآخر إلى منهج غير علمي، وهو ما أنتقده جورج طرابيشي في هذا التفريق. أما علي الوردي في دراسته شخصية الفرد العراقي، فلم يقيم الفروق بين شخصية الفرد العراقي والعقل الجمعي الاجتماعي في دراسته المجتمع العراقي. أما المنصف وناس في دراسته الشخصية الليبية فقد نظر إلى الشخصية القاعدية والذهنية بوصفهم الشيء ذاته وإن لم يصرح بها صرحة إلا أنه حينما يريد تحليل الشخصية القاعدية يذهب نحو ألفاظ من قبيل الذهنية الثقافية والخصائص الذهنية. أما حسين حميد في دراسته الذهنية العربية الثابت والمتغير، فعنوان الكتاب وإن كان توجد فيه لفظ ذهنية فقد ذهب الكتاب في كل محتواه يستخدم مفهوم العقلية واشتقاقاته دون أن يورد أي فوارق في المعنى.

وتارة أخرى تختلف تلك المصطلحات عن بعضها حسب المدارس الفكرية والنظريات المعرفية بين تلك التخصصات، حيث أورد علي وطفة ذلك الاختلاف في كتابه: **الجمود والتجديد في العقلية العربية "مكاشفات نقدية"**. إذ بات من الصعب فض الاشتباك بين هذه المفاهيم بوصفها مركزية في تلك التخصصات.

إن ذلك الاشتباك المفاهيمي هو ما يفسر نشأة مدرسة الحوليات عند مارك بلوخ Mark Bloch ولوسيان فيبر Lucien Febre للخروج بالبحث التاريخي من الاختزالية والمركزية ومن الحياة العامة إلى حياة المجتمع نفسه (الحياة اليومية)، وهذا ما أدى إلى ظهور علم تاريخ الذهنيات في الأربعينيات ليشق طريقه بعيداً عن البحث التاريخي، بوصفها – الذهنيات - نماذج وأدوات تفسيرية جمعت بين علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الاقتصاد يُفهم من خلالها علاقات التأثير والتأثر بين الفرد والجماعات والبيئة المحيطة (لوغوف، 2007).

في معجم علم الاجتماع، عُرّفت العقلية بشكل عام "بوصفها جملة الاستعدادات والعادات والتوجهات العقلية والأخلاقية والمعرفية والوجدانية التي تكون مشتركة بين أعضاء جماعة بعينها" (بودون، 1993، ص 144). وفي معجم مفردات العلوم الاجتماعية، العقلية هي جملة العادات الفردية أو الجمعية في التفكير أو الحكم، علماً بأن العادة تستبعد إلى حد كبير التفكير النقدي لصالح الاحكام المسبقة (فوكييه، 1978). بينما عدّ (غاستون بوتول-Gaston Bouthoul) مفهوم العقلية: جسم من المبادئ والاعتقادات والمعارف القارة بما فيه الكفاية ليقتدر على الرجوع إليها كل وقت، ولينتمي إليها بقوة جميع أفراد مجتمع بعينه . (بوتو، 1971، ص 13-30).

والعقل عند الجابري في سياق دراسته لتكوين العقل العربي في سياقه الثقافي يعرفه بأنه:"جملة المفاهيم والفعاليات الذهنية التي تحكم بهذه الدرجة أو تلك من القوة والصرامة رؤية الانسان العربي إلى الأشياء وطريقة تعامله معها في مجال اكتساب المعرفة وانتاجها وإعادة انتاجها (الجابري، 1994).

المُلاحظ في سياق تعريف الجابري أنه يرفض مفهوم العقلية الذي يقابل الذهنية ويفضل استخدم العقل كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، لكنه حينما يريد وصف نشاط للعقل فإنه يعود ليسميه فعاليات ومفاهيم ذهنية وهذا يحيلنا إلى وصف الذهنية بصورة أنثرو- تأويلي بوصفها خلاصة النشاط العقلي أو بوصفها خلفية النشاط العقلي فهي عند علاء كاظم (2012) الملكة التي يستطيع بها كل إنسان أن يخرج من إدراك العلاقات بين الأشياء بمبادئ كلية وضرورية (ص281)، أو يمكن أن تبقى كما رأها (جون ديوي John Dewey): "خلفية فاعلة ومتحفزة تكمن في حالة انتظار وتستخدم أي شيء قد يأتي قبلها، وبهذه الصفة، فهو ليس عملاً ولا شيئاَ، بل جهاز منظم من الميول يتبدى في معضم الأفعال والأشياء" (غيرتز، 2009، ص 175).

أما في سياق علاقة الذهنية بالثقافة فقد ذهب (جورج غوسدورف - Georges Gusdorf) إلى تأويلات مهمة للذهنية، إذ ينظر إليها بوصفها مرآة للمكان والزمان الثقافي وبؤرة تجمع للدلالات وأفقاً من الفضاء العقلي في جملته. ومولداً ومقياساً من الحساسية السائدة، وميسماً تفتقد بدونه عناصر الثقافة وقيمها وهويتها ووحدتها، وتعود شتاتاً من آناء عادمة الاتصالية، ومركز غائية يكفل التبادل بين الدلالات الثقافية والتاريخية وينظمها في شبكة توجه تطورها، بدون أن تلغي حريتها، ولا أن تقطع استمراريتها. وبكلمة واحدة هي عنده التراث المشترك للمتعاصرين في مكان - وزمان خاص. التراث الذي انطلاقا منه ورجوعا إليه، يتحدد إدراكهم للواقع وتخيلهم لما فوق الواقع والذي يقوم لهم مقام "الذاكرة الجمعية" و "الحساسية المشتركة" و "المعقولية الجامعة" بما من شأنه أن يغلب في الدلالة للكل على الأجزاء ويقدم الإطار العام لتفسير سلوك البشر في لحظة بعينها من التاريخ (غوسدروف، 1966). وهي في المدرسة السلوكية تعني حالة نفسية تتكامل عفويا مع منظومة قيم أخلاقية تظهر في نسق السلوك، وبوصفها حالة روحية نفسية يمكنها أن توحد هوية الجماعات والأفراد الذين يعرفون بطريقة تفكيرهم ويتمايزون بأنماط سلوكهم (وطفة، 2007).

ختاماً: في التعريفات سالفة الذكر الفاظ من قبيل: (جملة الاستعدادات، جملة العادات، جملة المبادئ، جملة المفاهيم، جملة الفعاليات، جملة الأنساق السلوكية الموحدة) بمعنى أننا أمام بُنية كلية فوقية للعقل كما أسلفنا سابقا أو بتعبير الجابري (فعاليات ذهنية) وإذا كان العقل عند كانط من وجهة نظر ميتافيزيقية: "أنا أفكر إذن فأنا موجود"، فإن علم النفس الاجتماعي يستطيع أن يضيف من وجهته: "أنا أفكر، ولكن بعقلية معينة، وبالإحالة إليها" (بوتو، 1971). ولهذا فإن مفهوم الذهنية الذي ترتكز عليها دراستنا ويمثل الإطار الحاكم لها ويمكن أن يكون هذا المفهوم مدخلاً علمياً لتفسير هذه الظاهرة من خلال ما سبق هو أن الذهنية: هي البنية المشتركة بين المجتمع والثقافة التي ينتمي إليها، وما جملة الاستعدادات والعادات والمبادئ والمفاهيم والأنساق والتصورات الذهنية والسلوك الاجتماعي لمجتمع ما إلا نشاطه الفاعل في الزمكان والبيئة المحيطة به بكل محدداتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والبيئية والسياسية والدينية. وهي بتعبير أندريه لالاند "الذهنية السائدة" في فترة زمنية ما (الجابري، 1994).

تمثلات الذهنية في حقل الدراسات الاجتماعية.

في علم النفس المعرفي لا يزال هناك التزام مشترك بفكرة أن الحالات والعمليات العقلية يجب تفسيرها من حيث هي تمثيلات للذهنية (العكاش، 2021)، الفكر، العمل، الشخصية، النشاط الإدراكي، العمليات العقلية، وهذا يعود إلى كون الذهنية هي الأخرى مفهوم مركزي في علم النفس

المعرفي وهي كذلك في علم الإدراك والاتصال الإعلامي. يأتي هذا المدخل للإسهام في بيان مفهوم الذهنية وتمثلاتها في حقل الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجيا التاريخية بوصفها مدخلا لتفسير الظاهرة التاريخية (الواقعة الاجتماعية الشاملة) وعلاقتها بالمفاهيم العقلية الأخرى بما هي علاقة ترابط من ناحية، فهي علاقة معقدة من ناحية أخرى، يستوجب منا بيان توضيحها.

1 - الشخصية:

ينظر شارلوت سميث إلى "الشخصية بوصفها ترتبط بالسلوك والمزاج أكثر من ارتباط العقلية بهما، بينما ترتبط عنده العقلية بالأفكار وطرائق التفكير، فضلاً عن ذلك الشخصية تمارس الإيحاء الذاتي أو على الأقل تتعلق به، بينما يمارس العقل التفكير والتعقل"(سميث، 2009، ص199). ووفقاً لـ(لويس غارديه Gardet, Louis) تتشكل الشخصية على أُسس متوافرة من قبل (عوامل نفسية جسدية تلعب الإثنية والوراثة الدور الأول في الغالب) هامش حرية الاختيار يكون فيها محصور جداً ومن العبث تحويلها تحويلا كاملاً. أما العقلية فهي تنتسب إلى القيم والمعتقدات (عوامل أخلاقية واجتماعية) ففي الواقع يمكن أن توجد عقلية واحدة بينما عملياً يوجد تنوعاً كبيراً في الأمزجة والطبائع النفسية (غارديه، 1992). والعقلية أو الذهنية إلى حد كبير انجاز بشري جماعي، وهي أكثر مرونة من الشخصية، لأنها ترتبط بديناميكيات التعقل، بينما ترتبط الخصائص الشخصية بعوامل نفسية – جسدية (كاظم، 2012).

ولهذا فإن الاقتراب من الموضوعية والمنهجية العلمية يتطلب الالتصاق بدراسة العقلية والتي يمكن تصنيفها في الدراسات الأنثروبولوجية، أما الشخصية فتجعل الأمور قريبة من ساحة التصورات والأحكام الذاتية مع الأهمية لدراسة الثقافة والشخصية، [وهذه مركزية في العلوم النفسية]. وهذا الخلط وقعت فيه بعض الدراسات العربية، ففي هذا السياق؛ عند مطالعتنا لبعض الدراسات العربية التي تناولت العقلية والشخصية العربية لم نجدها ترسم حداً فاصلاً في تناولها للمفهومين، وهي وإن عرّفت كل منهما على حدة في السياق النظري، لكنها خلطت بينهما في سياق التطبيق والإسقاط على الواقع الاجتماعي. وهذا يعود إلى أن مفاهيم الدراسات العقلية وتاريخ الذهنيات وعلم النفس الاجتماعي يشوبها القصور المعرفي في الدراسات العربية. فعلى سبيل المثال لا الحصر؛ نجد الوردي يستخدم مفهوم الشخصية في تناوله الفرد العراقي ومصطلحات من قبيل (سادية ومازوشية) ومفاهيم من قبيل صراع الطبقات الاجتماعية والغلبة والعصبية. وهو وإن كان عمد في تلمسه لازدواجية الشخصية العراقية إلى نواح ثلاث:" حضارية واجتماعية ونفسية". إلا أنه كما صرح غير مطمئن للنتائج التي توصل إليها ولا يعده بحثا استوفى شروطه، أو كما يقول هي مقالات أشبه ما تكون بالأدبية منها بالعلمية (الوردي، 2001، ص 48-51). وعدم الاطمئنان المتواضع يعود إلى أن ما قدمه الوردي وإن كان يعد مهما في دراسة المجتمع العراقي إلا أنه غلب عليها الطرح الذاتي والطابع الشخصي كونها ملاحظات شخصية، ومقاربات نظرية غير شاملة وانتقائية في التطبيق، اتسمت بالتعميم واهمال النسق التاريخي، أعطت صورة للشخصية العراقية كما لو أنها ثابتة وبعيدة عن التغيرات الاجتماعية. ولو أن الدراسة نهجت نهج علم تاريخ الذهنيات وهي مناهج تستدعي الإحاطة بالظاهرة الاجتماعية من كل جوانبها التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية الأنثروبولوجية لرأينا عملاً آخر تماماً.

والواقع أنه مهما قيل في تعريف الشخصية فإننا لا يمكن إلا أن نتصورها (كياناً غيباً) أو (كياناً ذاتياً) أو أنها من المعطيات الثابتة. لكن ليس أمامنا من بديل في مجال الدراسات الاجتماعية و[الأنثروبولوجية] إلا أن نحدد مفهوم الشخصية الاجتماعية في مرحلة ما بأنها محصلة للعوامل والقوى المؤثرة والمتفاعلة في تكوين الإنسان فكراً ووجداناً وسلوكاً. "وأن مظاهر الشخصية الاجتماعية السلوكية والفكرية إنما تتمثل في استجابات منتظمة يمكن التنبؤ بها إلى أكبر قدر ممكن من التوقع في مختلف المواقف" (عمار، 1988، ص 150-151). وإذا كانت الشخصية محصلة عوامل وقوى مؤثرة؛ فإن الجدل المعرفي بين المصطلحين (العقلية والشخصية) - رغم أنها مصطلحات تتقاطع كما أسلفنا بين الكثير من العلوم - جدل تأثير وتأثر، من يؤثر فيمن؟ ولهذا فإن ورود تلميحات من قبيل شخصية الفرد اليمني في هذه الدراسة يأتي في سياق هذا الجدل، كيف أثرت الذهنية في الطبائع الشخصية (كيف أثر العامل الاجتماعي في رسم ملامح شخصية الفرد اليمني).

2 - الفكر والعمل (بنية النشاط الذهني):

نورد هذه الديالكتيك بين الفكر والعمل لكونهما أولاً: بنية النشاط الذهني ولهما دورا مهما في إماطة اللثام عن بنية الأنماط السلوكية والذهنية، وثانياً: لبيان أهميتهما عند تلمس أثر البنية الاجتماعية في تشكّل البناء الذهني وكيف يمكن لبيئتنا وتفاعلاتنا الاجتماعية أن تؤثر على عقليتنا وسلوكياتنا وتوجيه الذهنية نحو سلوك معين.

يذكر توفيق الحكيم في مؤلفه التعادلية مع الإسلام في سياق جدلية الفكر والعمل فيقول: ما من شك أن أحدهما سوف يؤثر في الآخر، فإما أن يظهر سلطان العمل فيخضع الفكر لإرادته، وإما أن يظهر سلطان الفكر ويوجه العمل حسب مشيئته، وإما أن يحتفظ كل منهما بسلطان معادل اتجاه الآخر، فيكون التوازن الذي يحد من انفراد الآخر بالسيطرة، هذا على مستوى الأفراد، أما إذا انتقلنا إلى المجتمع والأمم والشعوب، فإننا نجد الصراع بين هاتين الفرقتين: قوة الفكر وقوة العمل، يحتل الجزء الأكبر من تاريخ البشرية، فالعمل حسب قوله يمثل السلطة المادية التي تتولى أمور الناس بالفعل، والفكر ممثل في السلطة الروحية التي تبصر وتنقد وتفتح للناس الآفاق التي يمكن أن يمتد إليها تطور الإنسان (الحكيم، 1983، ص 83)

إن العمل والفكر كنشاط عقلي هما قطبي النشاط الإنساني في الزمكان، والفكر سابقا على العمل، وكلهما ينعملان في الفرد والمجتمع نتيجة للظروف التي تحيط بهما، بمعنى أنهما اكتساب، وغلبة أحدهما على الآخر في تكوين ذهنية الفرد أو المجتمع إنما تعود إلى جملة من المحددات التي بدورها تشكّل البنيات العصبية للذهنية. والفصل بين الفكروالعمل قد يبدو فيه شيء من التعسف العبثي فإذ كان كذلك كيف لنا أن نستقرئ توظيف الفكر عن الحياة العملية بمفاصلها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية (المرزوقي، 2019). ولكن يمكننا في هذا السياق أن نفرق بين فكر يسيره ويسيطر عليه العمل وتعززه الثقافة والمحيط الاجتماعي والحياة اليومية، وفكر آخر هو المسير والمسيطر على العمل وهو من يوجهه ويقييمه. وهنا يأتي الحدث عما يسمى بُنيات العصب الذهني، "حيث أن أي عملية تفكير نقوم بها مستعملين تصوراً ما، تعني أن البُنيات العصبية للذهن هي المسؤولة عن هذا التفكير. ووفقاً لهذا، فإن هندسة الشبكات العصبية لذهنك تُحدد تصوراتك ونوع التفكير الذي بإمكانك أن تقوم به"(لايكوف، 2016، ص 53).

وحينما نقول غلبة العمل على الفكر، نعني بذلك أن هندسة بنيات العصب الذهنية تسيطر عليها الحركة (العمل) وأي عملية تفكير تأتي من خلفية عملية."والحديث عن الذهنية هو حديث عن المجتمعات من حيث (بداوتها) و(تحضرها)، ومن حيث (تأخرها) و(تقدمها)، من حيث خصائصها وسماتها وآليات السلوك لأفرادها (مسالمة، عدوانية، رقيقة، جلفة، قبول الآخر أو النفور منه، النظام، الفوضى، التواكل، الإبداع، التقليد). هو حديث عن الذهنيات كأداة للتغييرات الفاعلة في سلوكيات الأفراد، كصبغة تصبغ شعباً من الشعوب أو أمة من الأمم، فنقول: هذا شعب كسول، باهت الحراك، وذاك شعب نشط، مسالم، عظيم الحراك" (حميد، 2009، ص18).

إذا ما نظرنا إلى العلاقة بين الذهنية والفكر والعمل، سنجد أنها علاقة تكوين ووجود الكُل للكل، في البداية تُشَكِّل البنية الاجتماعية والتنشئة الاجتماعي للفرد – والتي هي عبارة عن جملة من الأفكار والأشياء والتصورات والعادات والتقاليد – القالب الذهني أو ما يسميه (دانيال دينيت- Daniel Dennett) وعاء الأفكار وداخل القالب الذهني يوجد المسرح الديكارتي وهو المحل الذي تعرض فيه الأفكار والأشياء (لايكوف، 2016). ولكي يعطي الفرد انطباعاته وردود أفعاله مع ما يدور من حوله فإن تلك الردود يحددها ويتحكم فيها قالبه الذهني، وبدورها الأفكار والأشياء تعزز البنية الذهنية للفرد فتكيفها وتقلبها وفق الظروف التي يعيشها الفرد، بمعنى أن الذهنية مُحدد للفكر والعمل لدى الفرد، وفي الآن نفسه واقع الفكر والعمل يسهم في تكوين الذهنية الفردية والجماعية. الجدير بالذكر في هذا السياق أن العقل عند ديكارت كشخص هو الذي يستطيع المعرفة والرؤية داخل ذلك المسرح، أي أن العقلية غير العقل فالعقلية هنا هي ما أسماه دانيال بالوعاء الذي يوجد بداخله مسرح الأفكار والأشياء، والعقل هو من يحسن الاختيار من ذلك المسرح.

3 - الذهنية والثقافة.

إذا كانت هذه الدراسة قد وسمت عنوانها بالمحددات الاجتماعية، فإن الكل الاجتماعي؛ ما يحيط بالإنسان من نظم اجتماعية ورموز وعلاقات وبنى، هي في المجمل تُشكل البيئة الثقافية للإنسان، والكل الثقافي للجماعة هو ذلك النبع الذي ينهل منه الفرد ويراكم منه ذهنية وحضوره الاجتماعي. وإذا كانت الثقافة هي الجانب الجماعي من [الشخصية أو العقلية أو الذهنية]، فإن أي منها هي الجانب الذاتي من الثقافة. وهذا يعني أن هوية الأفراد الاجتماعية لا يمكن أن تنمو بطريق يرضى عنها المجتمع، ما لم تحدث الاتصالات أو الاحتكاكات الأساسية بين أفراده، فأثناء النمو الفرد الاجتماعي، يدخل في اتصالات مع الكثير من الجماعات والتي تحدد له بدورها، ما سوف تكون عليه تلك الهوية (دياب، بدون تريخ).

هناك من علماء الاجتماع من يرى أن نوع الثقافة هو الذي يشكل البناء النفسي في حياة المجتمع، بل أن هناك من يذهب إلى أبعد من ذلك بكثير، إذ يرى عدم وجود أي نوع من الغرائز أو الدوافع التي تدفع الناس إلى ممارسة سلوك معين أو القيام بنشاط ما، وليس هناك في نظرهم، أية استعدادات وراثية في طبيعة الفرد، سواء في قدراته العقلية أو اتجاهاته الانفعالية الوجدانية، أو منزعه السلوكي، وإنما كل ما يتوافر عليه الفرد الاجتماعي إنما هو مكتسب من مدى تفاعله ونشاطه الإنساني مع خبرات ثقافته التي انتقلت إليه عبر الأجيال ويعيش فيه (دياب، بدون تريخ، ص 120)

يعرف علماء الاجتماع والأنتروبولوجيا الثقافة بأنها: ذلك الكل المركب الذي يتضمن المعارف، والتقنيات والفن والأخلاق والعادات والعرف والتقاليد والتي تميز مجتمعاً ما عن آخر، أو مجموعة بشرية عن أخرى. (وصفي، 1971، ص 27). وفي المقابل إذا ما أردنا أن نُشرح مكونات الذهنية فلن نذهب بعيدا إذا قلنا أنها خلاصة ممارسة ومأسسة تلك المعارف والتقنيات والعادات والتقاليد في المجتمع، وإذا كانت الثقافة هي المُنتج النهائي لفعل الجماعة في الزمان والجغرافيا، فإن ذهنية الفرد هي في ذات الوقت مُنتَج ومُنتِج لتلك الثقافة.

وإذا ما أردنا أن نتناول مفهوم الثقافة بشقيه المعياري والسيكولوجي ومدى أثر ذلك على مقومات الذهنية، فإن الثقافة معيارياً كقاعدة وأسلوب وأعراف ومثل وقيم، تشكل وحدها نماذج السلوك ومخططات العقل. والثقافة سيكولوجياً تهتم بالتوافق والتكييف "تكييف العقل مع الثقافة السائدة"(ريم، 2016). وبالنظر إلى العلاقة بين الذهنية والثقافة، يمكن أن القول أنها علاقة تكوين كل منها للآخر. الكل الثقافي يقولب الذهنية الفرد والجماعة وفق الوعاء الثقافي للجماعة الأكبر، والذهنية الفردية والجماعية بدورها تمثل تروسا في مكنة إنتاج الثقافة ككل.

ثانيا: تاريخ الذهنيات وتناهج المنهج.

تاريخ الذهنيات.

أصبح الباحثون أكثر اهتماما باستكشاف الأسس النظرية لمصطلح "العقلية" أو "الذهنية"، وكيف تطورت هذه المفاهيم وتحولت دلالاتها عبر الزمن. لقد لاحظوا كيف انتقلت هذا المصطلحات من كونها موضوعات للدراسة في علم النفس وعلم الاجتماع إلى كونها أدوات تحليلية في البحث التاريخي. هذا التحول في استخدام المصطلحات يعود إلى ظهور "تاريخ الذهنيات/العقليات" كشكل من أشكال التاريخ الجديد - "وكردة فعل تجاه هيمنة التاريخ الاقتصادي" (جاك، 1999) - والذي تم تطويره على يد رواد مدرسة الحوليات، مثل لوسيان فيفر ومارك بلوخ، وتبعهم في ذلك باحثون مثل ليفي برول وجاك لوغوف وفيليب أرياس. هذا النهج التاريخي الجديد يقدم طريقة مختلفة تماما لفهم الماضي، حيث يتخطى السرد الخطي للأحداث، ويبحث بدلا من ذلك في أعماق المجتمع، ليكشف عن المواقف وأنماط التفكير والتمثلات الجماعية التي شكَّلت تاريخ مجتمع معين.

يبحث تاريخ الذهنيات في نظام القيم والأنساق التي تُشكِّل الذهنية الجماعية: في طرائق تفكيرها، وفي تمثلاتها إزاء واقعها الاجتماعي. يحلل هذا الضرب من التاريخ؛ البنى الذهنية بحثاً عن "النسيج الضامّ لروح المجتمعات" بحسب تعبير جاك لوغوف، ولذلك تستلزم كتابة تاريخ العقليات كما يقول احتكاكاً كبيراً بتاريخ الأنظمة الثقافية وأنساق المعتقدات والقيم والأفكار حيث تكونت العقليات وترعرعت وتطورت؛ إنه شكلٌ من أشكال الانثروبولوجيا التاريخية التي تحلّل المشترك الجماعي لمجتمع ما في فترة من تاريخه (المسكري، بدون تاريخ).

لم يكن تاريخ الذهنيات في عصر الآباء المؤسسين إلا وجها من تاريخ شاسع سمي حينها بـ "التاريخ الاجتماعي" – أو كذلك التاريخ الاقتصادي والاجتماعي الذي أُريد له أن يكون شمولياً – ولكن الشمولية كانت ممكنة آنذاك بالاقتصادي وفيه، لهيمنة الاقتصاد على البحث التاريخي. وفي الآن نفسه كان ذلك التاريخ متعارضا كلياً مع التاريخ السياسي الوقائعي (...)، لقد كانت توجد تواريخ منفصلة، التاريخ التقليدي من جهة (التاريخ العام) الذي يهتم بالفئات العليا من المجتمع والنخبة والثورات والحروب، والتاريخ الاجتماعي من جهة ثانية الذي يهتم بالكتل الاجتماعية التي بقيت على هامش السلطة، والتاريخ الاقتصادي الذي أهتم بأنماط الإنتاج. كانت تسمى هذه العلوم في الفرنسية بـ "العلوم الإنسانية" وفي الإنجليزية "العلوم الاجتماعية". غير أن فروع الذهنيات لم تكن مفصولة لدى جيل "الحوليات" الأول بما يكفي من الوضوح عن الاقتصاد أو الاجتماع أو الثقافي. لقد مثل عدم الفصل لدى الجيل الأول إلى ظهور تاريخ الشمولي "التاريخ الجديد" الذي يعطي البحث التاريخي شمولية الإحاطة بالظاهرة الاجتماعية بكل جوانبها، وهو ما يسمى الآن بـ "تاريخ الذهنيات" (لوغوف، 2007).

مع الجيل الثاني شهد "تاريخ الذهنيات" انبعاثه جديدة حينما شملت الحوليات: الديمغرافيا التاريخية والإحصائية والأنثروبولوجيا التاريخية، وعلم النفس التاريخي، والجغرافي، ثم لاحقا مع الجيل الثالث المرأة والطفل والممارسات الجنسية والانحرافات الاجتماعية والفئات والأعمار وثقافة القرية والذهنيات الدينية. وإذا كان الاقتصاد بالأمس هو مفتاح التاريخ، فإن "التاريخ الجديد" القاسم المشترك لكل العلوم الاجتماعية أو الإنسانية التي يحتويها مشروع الحوليات الجديد (لوغوف، 2007). أو بتعبير فرانسوا دوس "" يجب أن نعترف أن تاريخ الذهنيات أصبح محبذا لدى التاريخ الجديد، إنه في كثير من الأحيان يخترق التاريخ على أريكة الهواء كأنها وحدات بعيدة عن أي عوارض (دوس، 2009، ص297).

بيّن محمد حبيدة أنه مع الجيل الثالث من الحوليات، في السبعينيات من القرن العشرين، غير مؤرخو الحوليات العدسة من المنهج إلى التناهج، من التاريخ الشمولي إلى التاريخ الانثروبولوجي أو الأنثروبولوجيا التاريخية، في إطار مشروع التاريخ الجديد (تاريخ الذهنيات)، الذي تزعمه جاك لوغوف باهتمامات تُشرّح حقول الذهنيات والمخيال والرموز، مما دفع إلى تبني الحس الأنثروبولوجي للغوص في ثنايا الطقوس والسلوكيات والتمثلات الاجتماعية (حبيدة، 2018، ص 183)

لا يعتَبِر جاك لوغوف الذهنيات منهجاً ووسيلة لأخذ الحرية في التحرك أو للهروب نحو المتخيل كما هي لدى بعض الحوليّاتيين بل يضع تاريخ الذهنيات في قلب الجسم الاجتماعي وليس في ملاجئ بعيدة عن العقلنة، وتاريخ الذهنيات لديه يأخذ مكانه في شمولية تاريخية تغطي في الوقت نفسه الحضارة المادية والثقافية وعند (جورج دوبي - Georges Duby) هو "القمة الدقيقة للتاريخ الاجتماعي"(دوس، 2009). أما (كريستيان ديلاكروا – Delacroix) فيرى أن جاذبية هذا النوع (التاريخ الذهنياتي) تكمن في طابعها المبهم الذي مكنها من الاقتراب من علم الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي، فالروابط بين هذه الحقول غدت ذات أهمية إستراتيجية. ولا شك في أن الطابع المبهم لهذا المفهوم الغامض المرتبط بالذهن هو الذي مكن التاريخ من "الحرث" في أراضي العلوم الاجتماعية الأخرى (طحطح، 2019).

يأتي تاريخ الذهنيات للكشف عن مضمون البنى الذهنية لمجتمع ما، فيه تَتَناهجُ العلوم والمعارف وتتعاضد على نحو ما نلفِيه من دعوى لكسر الحواجز بين التخصصات في مقاربة التاريخ الجديد؛ إذ يلجأ الباحث إلى الاستعانة بعلوم متعددة في صياغة تأخذ شكل الدراسات البينية بغية تخصيب البحث الاجتماعي والتاريخي، (...) لذا فإن تحليل الظاهرة التاريخية بحسب تاريخ العقليات كما يدعو إلى ذلك مؤرخوها يقتضي الانفتاح على علوم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا والآداب واللألسنيات، ومناهج تحليل الخطاب، وغيرها من العلوم المجاورة.

وقد لفت انتباهي في هذا السياق التشابه الشديد بين ما يهدف إليه رواد تاريخ الذهنيات من التقارب بين العلوم للإحاطة بالظاهرة التاريخية أو كما يسموه "التاريخ جديد"، وبين ما جاء في تعريف التاريخ عند ابن خلدون كما نجده في المقدمة (1988)؛ حيث يُعرف ابن خلدون التاريخ: أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحول مثل التوحش والتآنس والعصبيات، وأضاف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ من ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب، والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال. والتاريخ بهذا المفهوم الخلدوني نجد كثيرا من العلوم الإنسانية والاجتماعية تتقطع فيما بينها كعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والأناسة والسياسة والفلسفة الخ (ص 27).

إن فهم تاريخ الذهنيات الذي سالف الذكر، يوفر لنا الأساس النظري الضروري لفهم كيف أن الذهنيات تتشكَّل وتتطور استجابة للتغيرات الاجتماعية والتاريخية وهذا بالضرورة ينطبق على الذهنية اليمنية، ولهذا فإن بحثنا في هذا السياق يرى أن النتائج التي توصل إليها (تاريخ الذهنيات) في دراسة المجتمعات، قد يعد مدخلا مفسرا لفهم العقلية أو الشخصية اليمنية كونه يدعو إلى تظافر المناهج وتعاضدها لشمول الظاهرة الاجتماعية والتاريخية، بمعنى أنه لا يمكن تفسير الظاهرة الاجتماعية أو التاريخية على الصعيد اليمني من وجهة نظر نظرية بعينها، اقتصادية أو اجتماعية أو علم بعينه أو وفق منهجية بعينها، كون البيئة الاجتماعية والسياسية والثقافية والتاريخية بالضرورة تحتم ذلك التعاضد لتداخلها وعلاقتها الوثيقة بالإنسان اليمني، ذلك أن الذهنية اليمنية ليست معزولة عن السياق الجغرافي والاجتماعي والاقتصادي الذي نشأت فيه، بل هي نتاج مباشر لتلك التفاعلات. إن تطور تاريخ الذهنيات من التاريخ الاجتماعي أو الاقتصادي إلى التاريخ الجديد بفضل تكامل المناهج فيما بينها، يُمكن من دراسة جملة التأثيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والجغرافية على الذهنية اليمنية عبر العصور، وكيف تفاعلات هذه العوامل مُشكَّلة أنماط سلوكية وتفكيرية بعينه. ومن شأن أيضا أن يُخرج الظاهرة الاجتماعية اليمنية من واحدية التفسير أو أُحادية النظرة والمنهج المفسر والصرامة المنهجية المنغلقة والانتقائية، إلى رحابة المناهج المتعددة التي تقصد الموضوع لا المنهج في ذاته بوصف هذا الأخير أداة لتحقيق الموضوع.

المبحث الثاني: المحددات الاجتماعية ودورها في نشأة الذهنية اليمنية.

تهميد:

في نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد تشكَّل الاجتماع اليمني الأول حسب البحوث الإركولوجية والحفريات المتوفرة التي قدمتها عدة نقوش سبئية وحميرية عديدة وُجدت في مواقع أثرية متفرقة من اليمن، من بينها نقش النصر (RES3945) الذي يعود إلى القرن السابع قبل الميلاد، ونقشي (RES3951) و (CIH601) الذين يعودان إلى نهاية الألف الثانية قبل الميلاد (الجرو، 2003). قدمت لنا تلك النقوش صورة عن الأوضاع التي عاشها الإنسان اليمني في تلك العصور، ونحن في هذه الدراسة لا نضع هذا التوقيت كبداية لهذا الاجتماع البشري، لاعتقادنا أن هناك ما هو مطمور ومنسي من تاريخ اليمن لايزال في بطاحه ووديانه لم يكتشف بعد، وإنما سنتعامل بموضوعية حسب ما توفرت لنا من مصادر وكشوفات أثرية، ثم بما نلاحظه من آثار ونتائج يمكن فهمها وتفسيرها من خلال بنية المجتمع التي نفترض في هذه الدراسة أنها لاتزال تحتفظ بالكثير من خصائصها لعدة عوامل من بينها:

- أن العزلة الأولى التي عاشتها هذه الجغرافيا لفترات زمنية طويلة، قديما عُزلت عن بقية الحضارات في حوض المتوسط وما بين النهرين لأسباب مناخية وتضاريسية تمثلت في الصحراء الشاسعة، وتاليًا مع مجيء الإسلام حينما ولت الحضارة الإسلامية وجهها متجهة نحو العراق والشام مما أبقى اليمن منعزلة عن الفعل الحضاري الإسلامي، ناهيك عن إفراغها من مخزونها البشري أثناء الفتوحات الإسلامية والهجرات المتعاقبة.
- العزلة الثانية التي شهدتها اليمن أثناء فترة حكم النظام الإمامي على اليمن والذي عزل اليمن سياسياً واقتصادياً واجتماعياً منذ مطلع القرن العاشر الميلادي، عزله عن موجة الاستكشاف ودراسات المستشرقين والحراك الفكري والمعرفي التي شهدتها تلك الحقبة، ولاحقًا عملية التحديث والعولمة والنهضة العربية حتى قيام ثورة سبتمبر 1962، ومع ذلك لم تتغير كثيرًا ملامح المجتمع اليمني في اليمن الجمهوري عما كان عليه سابقًا، لعدة أسباب لا مجال لذكرها في هذا المقام.
- قدر الجغرافيا اليمنية الاستراتيجية من ناحية، والتي تطل على أهم ممر بحري دولي، إضافة إلى إطلالة اليمن على شريط ساحلي طويل (البحر الأحمر وبحر العرب) ومن ناحية أخرى التنوع التضاريسي والمناخي والبيئي، والذي كان له الدور البارز في تشكيل الحياة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والتأثير الكبير على سلوك ومفاهيم وقيم التجمع البشري في هذه الجغرافيا.
- ثبات بنية النظام القبلي واستمرارها، والذي لا زال هو الطابع السائد على التكوين البشري اليمني حتى الآن، بالإضافة إلى نمط العلاقات القرابية القبلية في المجتمع، وسلطة العادات والتقاليد والعرف القبلي، ورفض مجتمع القبيلة الخضوع التام لسلطة الدولة المركزية، كل

ذلك جعل من المجتمع اليمني خامة لا زالت تحتفظ بخصائصها وسماتها القديمة، دون أن تؤثر عليها عوامل حداثية طارئة عليه من الخارج.

تعد الصلة وطيدة جداً بين الذهنية والنظم التي تحيط بالإنسان (الجغرافيا والبيئة، الجماعة، السياسة، الاقتصاد، الدين، اللغة الخ..) بوصف هذه النظم مجتمعة تُشكِّل الثقافة، والثقافة هي الأخرى تنتقل داخل المجتمع من جيل إلى جيل فتكسب مصداقيتها بالتجربة والقبول، وتأثيرات أخرى حاسمة في البناء الذهني للفرد، وهي تختلف ما بين مجتمع بدائي، وآخر زراعي، وثالث إقطاعي، ورابع رأسمالي، كما أيضا يحدث الاختلاف عند الانتقال من مدونة قيمية إلى أخرى، ومن مفهوم الفردية إلى الجماعة، ومن الجماعة الصغيرة إلى المجتمع، الانتقال الاجتماعي من العائلة إلى الحي إلى المدينة، ومن ثم "الدولة، البلد، الوطن" (حميد، 2009). ولتلمس ملامح محددات الذهنية في المجتمع اليمن، يجدر بنا البحث فيما يحيط ذلك الاجتماع من نظم وعوامل اجتماعية مؤثرة بوصفها المسؤولة عن تشكُّل تصوراته وآليات التفكير وأنماط السلوك لديه مُشكلة ما يمكن تسميته (الذهنية القارة) أو (ذهنية جمعية).

أولاً: النظام الاجتماعي.

ليس من اليسير رسم صورة للحياة السياسية والاجتماعية لشعوب لم تترك لنا وثائق سوى نقوش نذرية وتذكارية" – يذكر ذلك «سبتينو موسكاتي -Septino Moscati» في معرض كلامه عن عرب الجنوب- لكن حسب وصفه، هذه الأخيرة – أي النقوش النذرية – كثيرة، إلى حد يكفي لاستخراج نتائج معينة في هذا الصدد تتسم بالحيطة والحذر(موسكاتي، 1957). والوثيقة المثبتة وإن لم تتوفر لدينا بتعبير «العروي» في مفهوم التاريخ، إلا أن هناك مصادر أخرى يمكننا من خلالها استقراء ماضي المجتمعات، والبحث في ماهية ذهنياتها وكيف تشكَّلت، والماضي في تعبير (عبدالله العروي) "هو عالَم ذهني، يُستنبط في كل لحظة من الآثار القائمة أو بعبارة أخرى: "التاريخ هو الماضي الذي هو حاضر، وهل يكون غير حاضر (في الذهن، في اللغة، في الأشياء، في البُنى الاجتماعية، في الجغرافيا... إلخ)؟ الماضي حاضر بالفعل، لكنه غير فاعل لأنه غير مُبين"(العروي، 2005، ص38.23). وفي

سياق استحضار مفهوم (البُنى الاجتماعية) هو ما يمكن للمراقب – الأنثروبولوجي حسب (توماس جيرهولم) في دراسته لمجتمع مدينة مناخة، إدراك لغته الرمزية من خلال متابعة ممارسات الأفراد المشاركين فيه، ولكن لا يمكن لهؤلاء فك شفرته لتطابقها مع توقعاتهم الثقافية (جيرهولم، وآخرون، 1997).

في تناولنا للنظام الاجتماعي للمجتمع اليمني نذهب إلى ما ذهب إليه أحمد أمين، وسبق الإشارة إلى ذلك؛ وهو أن أهم عاملين شكلا العقلية العربية هما: البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية، وفي هذا السياق تحيلنا الإيكولوجيا اليمنية إلى أن بنية النظام الاجتماعي للمجتمع اليمني خضعت هي الأخرى لتأثيرات العوامل الاجتماعية والطبيعية وهذه الأخيرة – الطبيعية - أفرزت بدورها الحالة الاقتصادية كما أسلفنا التي شكَّلت بدورها أيضا الحياة والنظام السياسي، "فالنظام الاجتماعي لا يخرج عن كونه تنظيما لنماذج التفكير والتصرف التي تظهر خلال النشاط الاجتماعي وما يتصل به من إنتاج مادي، وهو بالتالي عبارة عن تجميع القواعد الاجتماعية السائدة في المجتمع والتي تتكون من العادات والتقاليد والقيم والصفات الأخلاقية المنظمة بوعي أو بدون وعي كوحدة وظيفية" (العطار، 2020). لقد أسس ذلك النشاط الاجتماعي بمجمل قواعده بنية المجتمع اليمني ومسرح النشاط السياسي والثقافي والديني أو ما يمكن تسميته بنوع من النظام التلقائي، "فالتفاعلات الاجتماعية تُسهم في تعليم الفرد منظومة القيم والمعايير والمعتقدات التي تُشكِّل الأنماط والعناصر الأساسية في الثقافة" (غدنز، 2005، ص87-88).

إذا كان البناء الاجتماعي بتعبير "بريتشارد" لأي مجتمع عبارة عن عدد من الأبنية أو الانساق الثانوية الداخلة في تكوينه النسق القرابي أو الاقتصادي أو السياسي والأيكولوجي، فإن هذه الانساق تتضمن عددا من النظم الاجتماعية والسلوكية مثل العائلة والعلاقات والتفاعلات ونظام الملكية ونظم الزواج وكل هذه النظم تؤلف فيما بينها وحدة متماسكة يفهم من خلالها البناء الاجتماعي الكلي للمجتمع (أبو غانم، 1985). ومهمتنا في هذا المبحث ليست دراسة البناء الاجتماعي أو النظام الاجتماعي ونشأته، فهناك دراسات لا بأس بها أسهمت في ذلك، وإنما مهمتنا ملاحظة الأثر المتبادل بين تلك النظم والأبنية ودورها في تشكُّل ملامح ذهنية مشتركة بين أفراد المجتمع.

1 - الوحدات الاجتماعي:

للطبيعة الجغرافية اليمنية أثراً كبيراً وفعال في طبع الحضارة اليمنية بطابع خاص ومتميز، بل إنه ليصعب معرفة التنظيمات الاجتماعية والتكوينات السياسية التي عرفها اليمن القديم [والوسيط والمعاصر] بمعزل عن معرفة الطبيعة التضاريسية التي تميز بها من تراكيب جغرافية متنوعة: جبال تعيش على الأمطار الموسمية، وسهول وأودية وهضاب ذات خصوبة عالية، ذلك التنوع انعكس دون شك على تنوع المناخ، تنوع المحاصيل الزراعية، فمن خلال النقوش نستشف أن الزراعة كانت الحرفة الرئيسية لليمنيين، كانوا شعوبا زراع بدرجة أساسية (الجرو، 2003). لذلك نجد أن التنظيم الاجتماعي في اليمن قام في بادئ الأمر على مجتمع (بيت) في النقوش (بيستون، وآخرون، 1982)، وهو مصطلح يطلق على كل الجماعة وموقع سكانها. شكَّلت مجموعة البيوت ما نجده في النقوش "القرية" (بيستون، 1974).

يبرز لنا شكًّل آخر من التنظيم الاجتماعي هو الشعب، أما أقدم ذكر للفظة شعب جاءت في نقش النصر (RES 3945) الذي يعود تاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد، بتشكّل هذا التنظيم إما بفعل توحد (البيوتات) أو نتيجة اتحاد مجموعة قبائل، كما في عبارة الشعب (سمعي)562 JA، مع وجود الشعب حاشد، وحاشد كما هو معروف أحد أثلاث الشعب سمعي، والشعب قد يكون سكان قرية، أو قبيلة، أو فئة من فئات المجتمع أصحاب حرفة واحدة مثلا، كما جاءت في نقش "عنان 22" (بيستون، 1974). وعلى أساس ذلك الاتحاد أو الاندماج الطوعي أو القسري لعدة قبائل (شعوب) تنشأ المدينة (الهجر) كمركز للقبيلة أو الاتحاد، بعد أن يتوفر لذلك الهجر المنشآت الأساسية كالمعابد والقصور ومصادر المياه (الشيبة، 1990).

في دراسته **"السيل والغيل": تقاسم المياه في اليمن**؛ يرى (دانيل فريسكو) أن الأساس الأيكولوجي للنظام القبلي اليمني يتشكل على أساس جغرافي وليس على أساس سلالي، كونته سلطة تقاسم المياه (جيرهولم، وآخرون، 1997). أو ما أسميناه في الصفحات السابقة التعاونية الزراعة، وهذا الرأي ينحو منح الدراسات التي لا ترى السلالة الأبوية بنية النظام القبلي. بعيدا عن كون دراسات عريضة تنظر إلى القبيلة بوصفها الوحدة التحليلية الأساسية لفهم المجتمع اليمني كما ذهبت دراسات باحثين يمنيين وأجانب، فأن (مارثا موندي) في دراستها الحكومة الأهلية في اليمن، ترى أن القبيلة وحدة تجريبية لا يمكن اعتبارها عمليا وحدة تحليلية، فالوحدة المنزلية برأيها هي الوحدة التحليلية الأساسية التي تؤدي دراستها إلى رسم رؤية شاملة للمجتمع اليمني؛ وذلك لأن هذه الوحدة تشكّل المستوى الأولي من المؤسسات الاقتصادية والسياسية والقانونية في المجتمع اليمني" (الحربي، بدون تاريخ). وما القبيلة إلا نموذج للوحدة المنزلية والتي منها تفرع برأي بحثنا البناء والنظام الاجتماعي والاقتصادي والقانوني.

في البداية كانت مجموعة الأسر الأبوية في المجتمع اليمني تُشكل تعاونية صغيرة (نظام رعوي)، أو ما يمكن أن نسميه "قرية" قريتم في اللغة السبئية كما ألمحنا، تبرز العلاقات الأسرية بين البيوتات فيها وفق طابع العمل والجهد الجماعي التعاوني التكاملي، وتأخذ المكانة الاجتماعية للفرد والوحدة الاجتماعية معاييرها من خلال العمل والإنتاج، فالذكور يقضون كل ساعات نهارهم في العمل خارج البيت، ويأخذ الفرد منهم صفة الرجولة من خلال مظهر العمل والكفاح لصالح المجموعة، والمرأة هي الأخرى جديرة بالرجل إذا كانت تساعده في عمله، وهي الأخرى منهمكة طوال ساعات النهار في أعمال البيت، وما تحيطه من الحوايا والحضائر وزرائب الحيوانات، وجمع المحاصيل الزراعية والأعلاف، وفي الغالب كان يسبق علاقة التزاوج بين الأُسر علاقات كونها العمل والمصالح المشتركة بين البيوتات (مجتمع القرية).

كونت مجموعة القرى ما يمكن أن نطلق عليه "محفد" مجموعة من الحصون، أو قبيلة - وإن لم يرد هذا الأخير في النقوش اليمنية، كونه لفظ يطلق على التجمعات البشرية في شمال الجزيرة العربية والذي يقابله في جنوبها لفظ "شعب" - إلا أنه ظهر نوعا من التحالف "حلف" (بيستون وآخرون، 1982، ص 52) بين هذه القرى، أو سُمي "شعبم" شعب في النقوش السبئية، يأخذ هذا التحالف أو "الشعب" اسمه إما من الأسرة التي تملك الأرض الكبيرة، أو من الأسرة ذات النفوذ والقوة، أو من مسميات طوطمية، وأحيانا مكانية استيطانية، وأحيانا مسميات بدائية معبرة عن التحولات الاجتماعية التي تُفرق بين المراحل الأولى من حياة ذلك الشعب والمراحل التالية – بعد صياغة التحالفات – كتعبير عن التفرقة والتحول، وفي الغالب لم يكن ذلك المسمى ذو علاقة برابطة الدم، وإنما تشكلت هذه القبيلة أو كما يسميها الدكتور جواد مطر (2003) "وحدة إنتاجية" اتحاد فرضته ظروف العمل كنوع من التكامل الاقتصادي (ص 120.119)

أما الكلمة الدالة على "قبيلة" هي في الأصل كانت تستخدم للتعبير عن نظام خاص، بمعنى أنه يجب ألا يتبادر إلى أذهاننا أن لفظ "قبيلة" يدل على جماعة تجمع بينها صلة القرابة والدم، فالحالة السياسية هي التي تقرر وظيفة وعمل الجماعة (نيلسن، 1958). بل أن باحثون يذهبون في التقسيم القحطاني إلى حد القول: أن النصوص المسندية لم تذكر "حمير" بصفتها شخصاً وأن حمير قد لا يكون نسباً وإنما صفة اجتماعية تدل على مستوى معين من التطور الاجتماعي، وإن مدلولها اللغوي يعني "حضر" (الارياني، 1990؛ جواد، 1993؛ معطي، 2004). وكمثال على تشكل الوحدات المكونة للمجتمع القبلي سلسة شاملة على نحو تدريجي من الجماعات، نأخذ عائلة "سعد" في منطقة الجوف من جنوب جزيرة العرب، كانت عائلة مشهورة وغنية بما يكفي لتجهيز القوافل لأجل المشاركة في تجارة البخور. لقد كانت تنتمي مع الآخرين في المنطقة نفسها، إلى سلالة (أبعَمَر). كانت روابط القرابة تربط هذه الأخيرة بالعشيرة الفرعية (الفخذ) آمان (Aman). بالصعود مستوى واحداً، فإن "آمان" تنتمي إلى عشيرة "جمعان" القوية التي نعرف من النقوش أنها كانت مسؤولة عن بناء الأبراج والأسوار في "ياثيل". إن عشرين أو أكثر من هذه العشائر، شكلت قبيلة معين، المتمركزة أساسا في مدينة قرنوا عاصمة مملكة معين. وهكذا تقدم القبيلة نفسها بوصفها مجموعة من القطاعات من وحدات أشمل، لكل مستوى مسؤوليات خاصة به من الأشغال اليومية من إنتاج مواد المعيشة والحرف اليدوية الخ.. (هيلند، 2010). الأمر كذلك بالنسبة لشعب سبأ الذي كونته مجموعة من البيوت (مجلس الأقيال) تعاونيات الزراعة والحواجز المائية ووسائل الري والسيطرة على خط القوافل بين ممالك الجنوب والشرق والغرب والشمال، وكذلك الأمر مع حمير، تعاونيات المدرجات الجبلية وشق الطرق وخزانات الماء وقنوات الري. مجموعة البيوت المنزلية (وحدة إنتاجية صغيرة) شكلت القرية، والقرية شكلت المحافد أو الحصن، والمحافد أفرزت البيوت القوية (الأقيال) وهذا الأخير مَثَّل دوراً اجتماعياً في مجلس الشعب (القوي) ليظهر المكرب ثم الملك والدولة.

لقد تميز المجتمع اليمني في كل مراحل (ازدهاره) بآليات للتنظيم الاجتماعي الدقيق والمميز الذي فرضته ظروف التعامل مع مكان بيئة مميزة من أجل السيطرة عليها وانتزاع أسباب البقاء منها أكثر من أي شيء آخر منذ فجر التاريخ، آلية تميزت بعقلانية التفكير [العملي] واللامركزية الإدارية، واحترام العمل والتعاون الفردي والجماعي، وعدم الغلو في اللاهوت والماورائيات، وعدم وجود طبقات تعيش على حساب الأخرى، وتغليب الحقوق والمصالح العامة، والانشغال عموما بمتطلبات الحياة المعيشية الضرورية للجميع من قبل الجميع، بدلا من متطلبات حياة الطبقة الخاصة أو حياة ما بعد الموت، كما هو الحال بالنسبة لمعظم الحضارات القديمة والمعاصر لليمن أو اللاحقة لها في وادي النيل ودجلة والفرات والهند وروما القديمة. أما التعاونية والعقلانية واللا مركزية، فهي التي احتكم إليها المجتمع اليمني في كل مراحل استقراره وازدهاره القديم والوسيط، والمثبتة في كل حقائق التاريخ، بدءا بخطوط المسند والكتب المقدسة وحتى الوقائع المعاصرة (وكاناكيس، 1976).

إن تلك الآلية الاجتماعية المميزة برأي حمود العودي، "المبنية على رابطة العمل والتعاون" قد جاءت انعكاساً لطبيعة المكان وخواصه المميزة أيضاً، وقد كان لاختلالها أو تعرضها لأي هزة أو اضطرابات سياسية أو اجتماعية من الداخل أو من الخارج، مهما كانت بسيطة، لا ينتهي بالأمور إلى مجرد تغيرات سياسية واجتماعية في البناء الفوقي للمجتمع، بل إن ذلك سرعان ما كان ينعكس على البنية التحتية في قاعدة المجتمع المادية الاقتصادية، ويعرضها للدمار والخراب السريع، وفيما يشبه الكوارث الطبيعية تماما (الجبلي، وآخرون، 2022، ص 154).

في الواقع المعاصر للحالة الاجتماعية والسياسية في المجتمع اليمني، ورغم بروز عوامل واكبت النظام الجمهوري وحالة الحداثة والتقانة المعاصرة كان لها دور انتكاسي على النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في اليمن، ومع ما تتسم به هذه الفترة الزمنية من حالة صراعية مُزمنة أتت على البنية التحتية للمجتمع والدولة، إلا أن هناك تماسك وثبات اجتماعي للوحدة الاجتماعية بفئاتها من الأسرة إلى القبيلة، ثبات لم نره في البلدان التي شهدت حالة صراعية أقل حدة كما هي في اليمن، رغم أن الحالة الصراعية في اليمن تُعد الأقدم في المنطقة، وهذا برأي بحثنا المتواضع يعود إلى سمات الذهنية اليمنية التي تميل إلى العمل التعاوني على مستوى الأسرة والقرية والقبيلة والتعاونيات المدنية الواسعة، ولو لم تكن تلك الذهنية تتسم بالنشاط والتعاون لما كان للإنسان اليمني أن يقف على هذه الجغرافيا، وما كان للدولة أن تقوم بواجبها، وإذا كان الماضي قد باح لنا من خلال الشواهد التي تركها على الجبال والهضاب والسهول والوديان عن ثبات الإنسان وصموده رغم عدم وجود الدولة، فإن الواقع اليوم يقول: لا توجد دولة بالمعنى الذي يحفظ التماسك الاجتماعي ويصونه، فما الذي يجعل المجتمع متماسكا سوى تلك الذهنية.

2 - العلاقات الاجتماعية.

لما كان أساس تكوين القبيلة في اليمن هو رابط العمل والإنتاج حسب رأي الكثير من الدراسات (مطر، 2003؛ الجرو، 2003؛ علي، 2001، الأشعب، 2004)، لا أواصر القرابة والدم؛ فإن ذلك سهّل تقسيم كل قبيلة إلى أثلاث وأرباع وأخماس حسب حجم القبيلة المراد بها الوحدة الانتاجية، وما يزال هذا التقسيم موجوداً إلى اليوم، أي أن الحاجة الاقتصادية السياسية هي التي تقرّر وظيفة الوحدة التي تُسمى القبيلة، وتتحكم في مسلكها وتحدد دورها في الإنتاج، [صحيح أنه لم تعد هذه الوحدة الإنتاجية قائمة على الإنتاج الزراعي بوصفها أساساً رابطاً بين أبناء القبيلة في الوقت الراهن كما كانت عليه قديما خصوصا بعد قيام دولة الوحدة لعدة عوامل طرأت على البنية الاقتصادية والاجتماعية، إلا أن ذلك الأساس تحول من مجال الزراعة بحكم انحسارها إلى مجالات أخرى ظلت المصالح المشتركة من تحكمها وأساسها الجانب المادي في عدة أشكال كالغرم والتعاونيات والهيئات والاتحادات والجمعيات والدواوين الأهلية العامة]. ففي إحصاءات لإدارة التخطيط قسم البحوث والإحصاء للاتحاد العام لهيئات التعاون الأهلي للتطوير في اليمن، بلغ إجمالي تكلفة الإنجاز التنموي للثورة التعاونية خلال أربع سنوات فقط ما بين 1978-1981م، في مجال الطرق والتعليم والمياه والصحة والصيانة، وهي المرحلة الثالثة سبقتها مرحلتان وتلتها مرحلة، 672 مليون، لم تساهم فيه الحكومة إلا بـ 40مليون فقط، مع أهمية ملاحظة أن الدولار وقتها لم تكن قيمته تتجاوز 4 ريالات (العودي، بدون تاريخ)

يرى «محمد الحداد» أن هذه الوحدات الإنتاجية ما نسميها هنا "وحدة تعاونية" المسماة بالقبيلة كانت عامة في جميع الدول والإمارات اليمنية القديمة، ويضيف نقلاً عن «نيكلوس ردود كاناكيس» أن تركيب القبيلة في عرف الدولة اليمنية القديمة كان على أساس العمل والإنتاج، لا على أساس القرابة والدم، وأن الجماعة التي يجمع أفرادها العمل تسمى "قبيلة"، حتى أن القبيلة الحاكمة حسب وصفه مكلفة بالعمل في سبيل الصالح العام وخدمة الدولة، أي أنها لم تخرج من اعتبار أن رابطة العمل هو أساس تكوينها (الحداد، 2010).

على غرار تركيب القبيلة في عرف الدولة القديمة بوصف العمل والإنتاج هو أساس تكوينها، يمكن القول أن القبيلة المعاصرة حافظت على جزء من ذلك الأساس يتمثل في بناء السدود وحفر الآبار وبناء المدارس وشق الطرق والزراعة بدرجة أقل، وأجزاء أخرى أخذت أشكال مختلفة بحكم التغيرات التي طرأت على البنية الاقتصادية كـ الغرم، والصناديق الأهلية التعاونية، والعادات والتقاليد التي تلزم الفرد وفق السلف والعرف القبلي على التعاون كشرط لبقاء الفرد في الجماعة. وفي سياق – الصناديق الأهلية التعاونية – تذكر إحصائية لمجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة، بلغ عدد هيئات التعاون بين عامي (1973-1981) إلى 1080 هيئة التعاونية، في11 محافظة فقط يمنية فقط (عثمان، 1988، ص 6).

إن إدراك الدولة اليمنية القديمة لأهمية تلك العلاقات ذهبت بها إلى ما هو أبعد؛ فقد أدركت دول اليمن الحضارية الكبرى مساوئ تعدد الكيانات القبلية ذات النفوذ المحلي، وضررها على وحدة البلاد، فحاولت أن تتلافى خطر ذلك التفكك، بأن أقامت روابطاً اجتماعية على أسس اقتصادية تعاونية، وذلك بأن قسمت القبائل اليمنية أو بالأصح المناطق إلى وحدات مجمعة زراعية، وصناعية، ومهنية وغيرها، وربطت بينها بروابط العمل والإنتاج بدلا من أواصر القرابة والدم.

وكانت تلك الوحدات المجمعة أساس العمل الجماعي التعاوني، وبفضل ذلك التعاون استطاعت تلك الدول أن ترسي قواعد بناء السدود، وإنشاء المحافد والمدن والقصور وبناء المدرجات الزراعية وشق الطرقات والإنفاق في الجبال تيسيرا لسبل المواصلات فيها، بل وسنت ما استلزم لذلك من تشريع وتنظيم غير كل ذلك من نظرة القبيلة الضيقة، ووسع من دائرة تفكيرها ونشاطها في نطاق العمل الجماعي الحضاري الواسع للأمة جمعاء (الحداد، 2010، ص 368).

يحيلنا العرض السابق، إلى أن طبيعة علاقات التنظيم الاجتماعي اليمني في بادئ الأمر في مجتمع "القرية"، كان قائما على أساس العمل، بدورها شكلت مجموعة القرى تحالفات "حلف" (بيستون، وآخرون، 1982، ص 52 ص8) صغيرة تسمى بالمحفد، أفرز تحالف المحافد بدوره تنظيما اجتماعيا أعلى، ما يمكن أن نسميه "شعب" كما جاء في نقش النصر (RES 3945). "يتشكل هذا التنظيم عادة إما بفعل توحد عدد من تلك التجمعات "البيت"، أو نتيجة لاتحاد مجموعة قبائل مكونة شعوباً، "اتحاد قبلي" كما في "النقش" عبارة الشعب "سمعي"، مع وجود الشعب "حاشد"، وهذه حاشد الأخيرة كما هو معروف أحد أثلاث "سمعي"، والشعب قد يكون سكان قرية، أو قبيلة، أو فئة من الفئات في المجتمع كأصحاب حرفة واحدة كما جاء في نقش (عنان22) فالرابطة التي تربط الشعب هي رابطة العمل والمصالح الاقتصادية المشتركة، أي رابطة مواطنة، تجمع شمل المواطن روحياً ومادياً. عند البروز لشعب ما وسيطرته على بقية الشعوب، فإن الأمر يعود إلى الأسباب الاقتصادية التي بدورها شكلت القوة العسكرية، وهذا بدوره أيضا يؤدي إلى نشوء تجمع اجتماعي جديد يظهر فيه الملك، وألقاب الملك التابعين." (الجرو، 2003، ص 239).

للمعايش للعادات والتقاليد القبلية يمكنه أن يلاحظ أنه لا تزال هناك الكثير من القرائن التي تدل على أن القبيلة اليمنية تعاونية في تكوينها شكلًّها العمل، تربطها المصالح المشتركة أكثر مما تربطها روابط الدم والنسب، ولا زالت هذه سمة أساسية وأصيلة في عرف القبيلة اليمنية، فمثلاً: يأخذ الفرد صفته وانتسابه لها من خلال صيغة التعاون التي تفرضها بنية القبيلة وتقاليدها ويفقد ارتباطه بالقبيلة لمجرد أن يخل بأي عرف تعاوني سبق وسنته أعراف القبيلة، ويأخذ مكانته أيضاً في القبيلة بمدى التزامه بتلك التعاونيات. وعلى سبيل المثال ما بقي من تلك التعاونيات ما يُسمى في العرف القبلي اليمني بـ"الغُرم" وهي غرامة مالية يشترك في دفعها كل الأفراد المتزوجين في القبيلة بالتساوي، وتدفع لقبيلة أخرى في حال ارتكب أي فرد من أفراد القبيلة مشكلة ترتب عليها دفع تكاليف مادية، والفرد الذي لا يدفع يفقد صفته وارتباطه بالقبيلة، وإن ظل يحمل اسمها، إلا أنه عملياً لم يعد منها، ويُوقع الجميع في حقه ما يسمى في العرف القبلي "الطرحان" حتى يدفع، والطرحان: هو مفهوم قبلي تتخذه القبيلة ضد أحد بيوتاتها أو ضد فرد من أفرادها، ويعني أن الفرد خرج من صف القبيلة ولم يعد يعنيها، فلا يسأل منه غرماً ولا تقوم القبيلة معه فيما قد يحدث له من القبائل الأخرى، وقد يحدث ما يسمى بالطرحان على مستوى البيوت بين الأفراد والأخوة، وتترتب على عودته اشتراطات والتزامات في حال أخل مرة أخرى، وهذه الغرامات المالية، أخذت الصيغة النقدية حديثاً، بينما كانت في التاريخ اليمني تأخذ طابع الجهد والبذل البدني بالعمل في الزراعة والحقول والقتال الخ، ولا يتوقف الأمر على الدفع للقبائل الأخرى، بل أحياناً قد تُدفع في سبيل إنشاء السدود والمدارس التعليمية أو شق الطرق وبناء المساجد وآبار الماء.

وبالعودة إلى الحديث عن التعاونيات، "أثبتت دراسات وأبحاث أثرية أن اليمنيين انشأوا في عصورهم الحضارية تعاونيات بنظم وقوانين تعد من أحدث وأرقى النظم والقوانين التعاونية في العالم، وأن من بين العوامل التي أوجبت هذه التعاونيات هو التكامل الاقتصادي، تتحد كل قبيلة (وحدة انتاجية) مع قبيلة أخرى (وحدة إنتاجية أخرى) تفرض هذا الاتحاد ظروف العمل وتدعو إليه الحاجة، بل أنه كان هناك حرص من الدولة على وجوب تطبيق نظام العمل الجماعي ومعاقبة المهملين حتى لا يتضرر الاقتصاد القومي" (مطر، 2003، ص 374-373).

لقد كان احترام العمل اليدوي والمهني والزراعة والصناعة في المجتمع اليمني القديم ووجوب ممارسته من قبل جميع فئات الشعب بلا استثناء بما في ذلك الفئة الحاكمة نفسها، من أعظم المميزات والتوصيات التي كشفت عنها الدراسات الحديثة بالنسبة للحضارة اليمنية، تؤكدها كل القرائن المادية والعقلية، لنمط الحضارة اليمنية وطابعها المميز النابع من طبيعة الظروف المادية، والموضوعية الأرض والسكان. إن العمل عند قدماء اليمنيين بمختلف أشكاله لم يكن يشكل الإيمان به واحترامه العميق وممارسه من قبل كل فئات الشعب إحدى المقومات الأساسية في بناء المجتمع واقتصاده الوطني فحسب، بل إن مقاييس الشخصية والصلات والاعتبارات والعلاقات الاجتماعية بين الناس لم تكن تحددها عوامل الجنس أو العنصر أو الملكية الخاصة أو الطبقة أو مشاعر الانتماء السلالي أو المذهبي أو القبلي أو العشائري أو الإقليمي من ما أفرزتها عهود التخلف والانحطاط اللاحقة، بل كانت تحدد بالنسبة للشخص أو الجماعة من خلال عملها وإنتاجها، لا من خلال احسابها وأنسابها، كما يعتقد الكثير. فروابط العمل هي المُكون الأساسي الأول لوجود الجماعة وليس روابط القرابة والدم - أسرية كانت أم قبلية أم غيرها - وكان على كل من يُريد أن يُحرز نجاحاً شخصياً أو مكانة اجتماعية أن يحققها من خلال العمل المُنتج ضمن جماعات إنتاجية (العودي، 1980، ص 59-60).

3 - التنشئة الاجتماعية

ينظر علم الاجتماع إلى التنشئة الاجتماعية على أنها "الوسط الأول والقناة الرسمية الأساسية التي يجري فيها نقل الثقافة وانتقالها من جيل إلى آخر، وتعد مرحلة الطفولة الفترة التي يصل فيها التعلم الثقافي أقصى درجات الكثافة، ونحن حينما نقول ثقافة؛ نعني بها ذلك الكُلُ من القيم والعادات والتقاليد والمعتقدات وأنماط السلوك واللغة التي تبدع وتنظمْ الدلالات العقلية والروحيـة والحسيّة مشكلة المجتمـع نفسه الذي نعيش فيه بمعنى (أي نمط عقلي ذهني) وقد أصبح ذلك النمط الذهني مظهراً للوعـي أو (وعياً)، وهذا الوعي في الآن نفسه وعيٌ باللذات ومنها يستقي الفرد تعريفه لنفسه (الهوية الفردية). أما التنشئة الثانوية، فتحدث في فترات لاحقة من الطفولة، وتدخل في هذه الفترة عوامل أخرى، تشكلها الأدوار والمسؤوليات التي كانت تقوم بها العائلة، من بين تلك العوامل: جماعة الأقران والمؤسسات الاجتماعية والمدارس (غيدينز، 2018).

قدمنا في الفقرتين السابقتين لمحة لتشكل البناء الاجتماعي ونشأت العلاقات الاجتماعية للمجتمع اليمني الأول، وأرجعنا كل منهما إلى بيئة العمل، بوصف هذه الأخيرة تؤسس بنية المجتمع، مسرح النشاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي. صحيح أن لا ملامح واضحة تخبرنا عن التنشئة البيتية للفرد في تاريخ اليمن القديم، ولكن يمكن أن تُحيلنا البنية والعلاقات الاجتماعية ومسرح الفعل الاجتماعي إلى الكثير من الإشارات والقرائن لواقع التنشئة الاجتماعية في ذلك المجتمع. تخبرنا النقوش اليمنية في مجملها دون تصريح أن ذلك المجتمع اليمني القديم مجتمع ذكوري بامتياز وملامح ذلك المجتمع لاتزال ماثلة حتى اللحظة في المجتمع اليمني بوصفه مجتمع (ذكور أبوي). فإذا كانت الزراعة والتعاونيات الاقتصادية هي عماد تلك الحضارات، فإن الأفراد الذكور هم من شيدوا ذلك العماد أو على الأقل ما توحي به تلك النقوش، لما تتطلبه تلك الأعمال الشاقة من جهد بدني وعضلي، ولأن السمات البارزة في ذلك المجتمع تركز على القيم التقليدية للرجولة وإثبات المكانة الاجتماعية من خلال طابع العمل.

ومن الإشارات التي تخبرنا بها النقوش النذرية عن ذلك المجتمع الذكوري، عن نذور تسأل من الإله أن يهبها الذكور (CIH86) (سلطان، 2010، ص114)، حتى أن إله المطر "عثتر" في ذلك المجتمع اليمني كان ذكرا، بينما نجده في نظائره في جميع الأديان السامية الأخرى مؤنثا (موسكاتي، 1957، ص 194)ٓشب، ورمز الإله "ألمقة" الإله الرئيسي في اليمن كان الـ"ثور" دلالة على إخصاب الأرض وحرثها، وفي طقوس الصيد يتم اصطياد ذكر الوعل لا إناثها، وفي الأضاحي النذرية التي تقدم في المعابد تقدم الذكور أولاً.

تدلل الإشارات السابقة وغيرها الكثير مما لا يسعنا ذكره هنا على أهمية الذكور في ذلك المجتمع بل أن ملامح ذلك المجتمع الذكوري لا تزال حاضرة حتى اليوم في المجتمع اليمني وهذا لما تتطلبه بيئة العمل من تكاتف وتعاون، ولتكثير سواد مجتمع القبيلة من الذكور لمواجهة الصعوبات والتحديات التي تفرضها البيئة والتضاريس. تحيلنا تلك المؤشرات إلى واقع التنشئة الاجتماعية، بل أن باحثنا في هذا السياق يرى أن واقعها في ذلك المجتمع اليمني لا يذهب بعيدا عما هو عليه اليوم.

بالعودة إلى التعريف الذي أوردناه عن «أنتوني غيدينز» فإن مؤسسات التنشئة الاجتماعية في المجتمع اليمني الأول، ولما تعليه من شأن الذكور ولما تقتضيه تلك البيئة من روح التعاون والعمل، ولأن الفرد يُعرف فيها من خلال عمله؛ فإن مراحل التنشئة الاجتماعية في جميع مراحلها كانت بطبيعة الحال تغرس في الفرد ما ينطوي عليه نظام الثقافة التقليدية من الأنماط والسلوك الأساسية والقيم والمعايير والعقائد التي من شأنها صهر الفرد في بوتقة العمل الجماعي، والتي بدورها تكسب الفرد الأدوار الاجتماعية المنوطة به، فالعمل والتعاون كما أسلفنا هو من شكَّل اجتماعهم البشري وانتقالهم من حياة الترحال إلى الاستقرار.

إن عوامل أخرى كالبيئة والاقتصاد والثقافة واللغة والدين والعادات والتقاليد مما لا مجال لذكرها في بحثنا نظرا لحدوده النظرية المتمثلة في البعد الاجتماعي، كانت هي الأخرى لها دوراً كبيراً في اكساب الفرد اليمني في ذلك المجتمع أنماط وسلوكيات بعينها دون سواها، شكَّلت نظرته للبيئة والحياة من حوله، وتلك النظرة ليست غريبة عن محيطها بل هي تنسجم تماما مع واقع الحال في ذلك المجتمع العملي.

يُعلي المجتمع اليمني من قيمة العمل ويجري تعريف الفرد ومكانته ودوره الاجتماعي من خلال ما يبذله من جهد على مستوى العائلة أو على مستوى القبيلة، فالعائلة تُعلي من شأن الابن الذي يعمل أكثر، من يتحمل أعباء البيت وينفق ويُقدم العون والمعونات للأقارب حتى وإن لم يكن الابن الأكبر فيقال (شاقي البيت، ابن أبيه)، كما تُعزز العادات والتقاليد من قيمة الرجولة التي ترتبط بالغالب بالجهد والفعل، "فمن يملك يساوي شيء ومن لا يملك لا يساوي شيء، والعمل عبادة" كما في الأمثال الدارجة. الأمر كذلك في الأنساق الثقافية والاجتماعية، والدينية، في الثقافة الشفهية واللغة المحكية والشعر الشعبي، فلان من الناس في منظور المجتمع لا يعدو رجل إذا لم يكن شخصا يعمل وينتج. القبيلة هي الأخرى تُعلي من شأن الفرد الذي يُقدم جهوده في سبيل رفعتها وشرفها وعزها، بل أن الدور الاجتماعية الذي يشغله ما يسمى بـ(شيخ القبيلة) هو في أساسه دوراً اجتماعياً قائماً على العمل والجهد الذي يبذله الشيخ في سبيل تحقيق مصالح المجموعة. وهنا نستدرك أن المكانة الاجتماعية التي تُقابل (شيخ) في المجتمع اليمني القديم كانت تسمى "قيل" وأخرى (قين) وهي في الأساس أدوار اجتماعية تقتضي العمل؛ فالأول يتم تعينه بموافقة الجماعة (الشعب) يمثلها في مجلس الملك (مرود/مزود) يقوم بتنفيذ واجباته الإدارية وهو موظف رسمي يُسير أعمال مجموعته، والثاني هو موظف دنيوي ومركز حكومي إداري إشرافي يكلفه به الملك كإدارة أراضي أو معابد الخ.. (علي، 2003؛ مطر، 2003؛ موللر، 1982).

تجري التنشئة الاجتماعية في المجتمع اليمني بمعية المؤسسات الاجتماعية كـ (مؤسسة الأسرة والقرية والأقران والمدرسة واللغة وجماعة الكشافة والمسجد ووسائل الإعلام ورابطة الأحزاب والنقابات الخ..) نحو صهر ذات الفرد في الجماعة بما لا يسمح بظهور الذات الفردية، لأن هذه يتنافى مع الروح الجماعية بالمفهوم القبلي والديني (ذهنية التعاون)، وهذا بدوره يُعزز قيم العمل الجماعي، "فالقيم ترتبط بالحاجات الأساسية للفرد فهي تتغير وفقا لاحتياجاته، وهي صالحة ما دامت تتناسب مع ظروف البيئة التي نشأت فيها" (العودي، 2008، ص 68). والفرد بدوره ملتزم بتلك القيم من منظور الجماعة وحينما يخالفها يجد نفسه خارج المجموعة وفقا للعرف والتقاليد، فالرابطة التي تجمعهم تقتضي بذل النفس والمال والجهد في سبيل الجماعة.

تجري عملية الاهتمام بالذكور وفقا للحالة الانسجامية مع تلك القيم، "وتفضل الأسرة وتتفاخر بكثرة الانجاب" (الحداد، 1993، ص 205) - وتحديدا إذا كانوا ذكورا – ويتلقى الصغار الاهتمام والثناء وفقا لما يبذلونه من جهد عملي مع الأسرة (أعمال البيت والزراعة ورعي الأغنام) مساعدة الأبوين في الأعباء اليومية بشكل عام، وهذه ضرورة تفرضها البيئة اليمنية الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية لمواجهة الظروف المادية. تستخدم مؤسسات التربية المختلفة الأسلوب القاسي في مراحل التربية المختلفة، وتطغى على العملية التربوية لغة السخرية والتسلط والقمع لتسريع إدماج الفرد في بوتقة الجماعة وتحمل الدور المنوط به، تحد هذه الطريقة في التربية من قدرات الفرد على التفكير النقدي الإبداعي، لحساب تنمية قدرات ترى منها العائلة أولوية قصوى لبقاء استمرارها. ولذلك يتلقى الأطفال في أثناء تلك المراحل المديح والثناء من قبيل أنت (بطل وشجاع وأسد ونشيط وقوي ورجل) لما ينجزونه من أعمال بدنية وتحمل الأعباء الشاقة وتحمل المسؤولية في سن مبكرة، وهذه صفات دالة على الحركة، وهذا بدوره يُسهم في تنميط السلوك والتفكير لدى الفرد على حساب أنماط وسلوكيات معينة، فيُكَيف البناء الذهني للفرد نحو العمل التعاوني لمواجهة الأعباء والظروف المادية.

4 - التفاعل الاجتماعي

تُسهم التفاعلات الاجتماعية في تعليم الفرد منظومة القيم والمعايير والمعتقدات التي تُشكِّل الأنماط والعناصر الأساسية في الثقافة، كما تقدم الحياة اليومية ذات الوتيرة الواحدة (الروتينية) بُنية حياتنا وشكلها، ومن خلال التفاعل الاجتماعي يستطيع الفرد تعلم الكثير من افتراضات المجتمع المسلمة، أو المسلم بها، سبر أغوار منهجية الجماعة، السبل التي يستعملها الناس في حياتهم اليومية في سعيهم لفهم عوالمهم وتشييد بنياتهم (غيدينز، 2018).

بالنظر إلى مؤسسات التفاعل الاجتماعي نجد أننا أمام تفاعل اجتماعي مكثف ومتنوع وأصيل في النظام الاجتماعي اليمني قل أن نجد له نظيراً في المجتمعات التي تحيط بالجغرافيا اليمنية، كان للبيئة هي الأخرى وتنوعها الأثر الكبير والبارز في خلق ذلك الفعل ونشاطه وتنوعه، ومن بين تلك المؤسسات سوف نتعرض لبعض منها لكثافتها وبروزها. تنظر (شيلا وير) في دراستها الدلالات الاجتماعية والطقسية لجلسات القات في اليمن على أنها مؤسسات اجتماعية قائمة بذاتها، وتقسم هذه الجلسات إلى ثلاثة أنواع: جلسات حل النزاعات، ومقايل المناسبات، ومقايل "المَفْرَجْ" في لهجة أهل صنعاء، في سياق تناول التفاعلات الاجتماعي ضمن البناء الاجتماعي للمجتمع اليمني يمكن النظر إلى مؤسسة جلسة القات على أنها من أهم مؤسسات التفاعل الاجتماعي [إذا لم تكن المؤسسة الأولى التي من خلالها يتلقى الفرد اليمني أسلوب حياة الجماعة ويكتسب من خلالها ماكيزنزمات البُنيات الذهنية للجماعة]، ترى شيلا أن النوع الأول والثاني (جلسة حل النزاعات ومقيل المناسبات) مقايل قائمة على التعاون الجماعي والمساواة، على عكس جلسة المقايل اليومية (جلسة المفرج) القائمة على التراتبية الاجتماعية، ونحن إن كنا نتفق مع شيلا في توصيفها للنوع الأول والثاني ونراه انعكاس طبيعي للنظام الاجتماعي، إلا أن توصيفها للنوع الثالث، جاء في سياق دراسة البيت الصنعاني المتأثر ببيوتات (السادة) أو من يتسمون بالهاشميين تراتبية اجتماعية خارجة عن النسق الاجتماعي، وهذا التعميم لا يصح على جغرافيا واسعة من اليمن، وقرائنه حاضرة وجلية في الاجتماع اليمني (تامنيان، 1997).

يمكن النظر إلى المساواة في جلسات القات بين أفراد القبيلة وتقابلهم وجها لوجه في جماعات انعكاس للبناء الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية، العلاقات التي أوجبها العيش والمصالح المشتركة التي تظافرت عوامل اقتصادية وبيئية في تشكّلها، والتساوي أمام بيئة العمل للتغلب عليها وتطوعيها من أجل البقاء. ففي هذه الجلسات لا نجد أحد يتعاطى القات منعزلا بشكل منفرد عن الجماعة بل يعد ذلك خروجا على مبدأ (تخزينة القات) أو لمة القات، ومُخزن القات: هو الشخص الذي يتعاطى القات، يسمى مُخزن، وتسمى جلسة القات "جلسة التخزينة".

بالعودة إلى جلسة حل النزاعات التي ذكرتها (شيلا) التي تحتكم بالعادة إلى العرف القبلي، قائمة هي الأخرى على مبدأ (الغُرم) الجماعي القائم على التعاون الذي فرضته العلاقات التي تربط أعضاء القبيلة فيما بينهم المصالح المشتركة التي أسستها بيئة العمل، فكل أعضاء القبيلة (المتزوجين) في القرية مسجلين في قائمة، وحسب الكلفة المادية المفروضة على القرية يقتسمها الجميع بالتساوي. والأمر كذلك في المناسبات والأعراس، هناك في بعض مناطق محافظة البيضاء مبدأ (الحِنّاقة) والحِناقة: هي معونة مالية تقدم من الحاضرين لحفل الزفاف لأهل العريس ويشتهر هذا الاسم في محافظة البيضاء، المعونة فهي مبلغ مالية هي الأخرى يقدم لأهل العريس. وفي مأرب مبدأ (المُعونة أو العون) وهي مبالغ مالية هي الأخرى يقدمها

الحضور لأهل العُرس، ويتم تقييدها في سجل والاحتفاظ بها لكي يعلم العريس في المستقبل من الذين قاموا بالعون لكي يرد لهم جميل صنيعهم حينما يأتي العرس في بيوتهم. لها تسميات مختلفة: "العانة" أو "الشملة" أو "الفزعة" (الشرجبي، 1990، ص 302).

وفي مناطق الشمال "العَسْب" والعَسْب في لهجة أهل صنعاء وعمران والمحويت ومناطق أخرى هو الإكرامية والهبة التي تعطى في المناسبات والأعياد الخ... (الإرياني، 1996، ص 624). وهناك مسميات أخرى في أجزاء واسعة من اليمن. إن ذهنية العمل التعاونية الزراعية التي شكَّلها العمل الجماعي في أعالي الجبال، هي نفسها التعاونية التي ساهمت في إقامة مناسبة حفل زفاف جماعي لتزويج (10044) عريسا وعروسا في صنعاء، وغيرها من الأنشطة الاجتماعية القائمة على مبدأ التشارك والتعاون الجماعي، وهي نفسها الذهنية التي سنّت عرف الغُرم في دفع (الدية) والحِنّاقة والعسب والعوادة وغيرها من الأعراف التي أفرزتها ذهنية العمل.

إن من بين مؤسسات التفاعل الاجتماعي اليومية التي أوجدتها روح التعاون والتشارك التي تتصف بها الذهنية اليمنية على سبيل المثال لا الحصر، مآدب تناول الطعام اليومية على مستوى البيت أو على مستوى المناسبات الاجتماعية، وهي وإن كانت نشاطاً اجتماعياً بسيطاً لا يخلو منها أي مجتمع، إلا أنها يمنياً طريقة فعالة في الاتصال الاجتماعي لخصوصيتها، خصوصا إذا ما أعدينا المجتمع اليمني مجتمعا مضيافا لا يكاد يخلو الضيف من البيت اليمني. يُلاحظ في مناطق كالبيضاء وذمار ومأرب ويافع والضالع مبدأ أو عُرف (الفَرقَة) وهي أن الضيف إذا كان كثير العدد يتم تفريقه على أبناء القرية، وفق قائمة تعد مسبقا يسجل فيها كل أبناء القرية المتزوجين وهكذا يمضي الدور حيثما توقف ثم يعود مرة أخرى من بداية القائمة مع ضيف آخر يزور القرية. الأمر الآخر أن طقوس مأدُبة الطعام وتحديدا (وجبة الغداء) تعد حدثا اجتماعيا تفاعلياً ذو أهمية في الحياة اليومية للمجتمع اليمني، لطابعها التشاركي الجماعي، التي تعتبر امتدادا لنسق الحياة الجماعية، يبدأ الجميع صباحا في أحوال وأعمال الزراعة والاعمال الأخرى، ثم بعد ذلك تأتي وجبة الغداء لتجمعهم على وعاء واحد يأكلون منها جميعاً دون تمايز، ثم بعد ذلك تأتي جلسة القات لتكمل ذلك النسق التفاعلي الجماعي الذي بدأ بالعمل ثم أنتهى بجلسة القات.

لا يقف الأمر عند الأعراف والتقاليد فحسب وجلسات القات والضيافة، بل يذهب (فضل أبو غانم) إلى أبعد من ذلك؛ ففي قرائته للتفاعل الايكولوجي والاجتماعي، وتعليقا على استشهاد نقله عن (محيي الدين صبري) مفاده: "أن المساكن التي تتكون منها القرى و"المحلات" من حيث نمط البناء والتشكيل البنياني للمساكن هي انعكاس للأسس التنظيم الاجتماعي". يرى أبو غانم أن نمط البناء الذي يتميز به السكن العائلي الأصلي والفروع السكنية الملحقة به في المجتمع اليمني، غالباً ما يكون متعدد الحجرات لتكون كافية لاستيعاب أفراد العائلة الكبيرة الممتدة أو المعقدة"، كما يبرز فيه طابع العمل والجهد الجماعي والتعاوني الذي يقوم به أعضاء المجتمع العائلي وأقرباؤهم وذلك وفقا لمبادئ التعاون والتعاضد والتكافل.. بالإضافة إلى أن طبيعة النظام والنشاط الاقتصادي هو الآخر قد أثر في شكل بناء البيت وتركيبه الداخلي (أبو غانم، 1985).

إن القرائن التي تُدلل على تلك الذهنية التي أسميناه بالعملية كثيرة - ونحن في هذا السياق لا نُحاكم الظاهرة ونستنطقها بما نريد، ولا ندعي أن ما نسميه ذهنية عملية هي أمر مفروغ منه، وإنما نبحث في البناء والنظام والتفاعلات الاجتماعية لتلمس ملامح بُنيات حاكمه أو مشكلة لتلك الذهنية – أفرزت الكثير من مؤسسات العرف القبلي وقوانينه، ومن بين تلك القرائن ما يسمى بـ(النَّكَفُ) في العرف القبلي، والنَّكَفُ: هو استنفار القبيلة وتذميرها بالتحريض والتعبير إذا لزم الأمر لتحشيد الحرب، أو لأي أمر مهم ألم بالقبيلة (الإرياني، 1996، ص 882) والنكف يكاد يكون ظاهرة تتصف بها البنية القبلية في أرجاء اليمن، وهو مبدأ قائم على التعاون في الحرب، وكذلك موعد (الصِرَاب) في المواسم الزراعية (موسم حصد الثمار) وهو موعد أساسه التعاون والعمل والتشارك، وفيه تُعزز بُنية الفعل الاجتماعي بين أبناء القرية ويتشرب المجتمع من خلاله العمل الجماعي التعاوني، كذلك مبدأ (التحكيم) القائم على دخول طرف أو أطراف عدة في ضمان حل نزاع قبلي، وغيرها من القرائن الدالة على التعاون والتعاضد الاجتماعي.

ثانياً: الهجرات والاغتراب

يتفق علماء الاجتماع بصفة عامة والمشتغلون منهم في قضايا السكان والهجرة على وجه الخصوص، بأن الأسباب والعوامل الجوهرية الكامنة وراء هذه الظاهرة الاجتماعية العامة، تتمثل في مجموعتين من العوامل، وهي ما اصطلح على تسميتها بـ "العوامل الطاردة والعوامل الجاذبة"، أو مجموعة عوامل الطرد والجذب. توصف البيئة الاجتماعية في اليمن أنها واحدة من أشهر بلدان العالم وتجمعاته البشرية المتصفة بالهجرة عبر التاريخ وبمعدلات قياسية جعلت من الهجرة مفهوما ملازما للإنسان اليمني وتاريخه، ماضيا وحاضرا (الجبلي، وآخرون، 2022).

كانت الهجرة ولازالت استجابة طبيعية وبشرية واجهها الإنسان اليمني، واستمرت لقرون حتى أصبحت جزءاً من ثقافته. فالبيئة اليمنية توصف أنها بيئة طاردة أو مرسلة للهجرات بدرجة رئيسية، وليست مستقبلة لها إلا في حدود ضيقة لا تذكر، وتستند أسباب هذه الخاصية الثابتة إلى طبيعة خواص ومكونات المكان الثابتة، الموارد الطبيعية والمعيشية بالنسبة لسكانه عبر التاريخ، حيث لا تتصف مثل هذه الموارد بالوفرة الطبيعية الزائدة (فائض الانتاج) التي تتصف بها مناطق الأنهار كوادي النيل ودجلة والفرات، ولا المناطق المطيرة الأغزر كالمناطق الاستوائية وشمال البحر الأبيض المتوسط، ولا بالندرة المطلقة كالمناطق الصحراوية القاحلة في شمال الجزيرة العربية أو غيرها؛ لأنها تتكون من مزيج من هذا وذاك.

ندرة المياه وقلة الأمطار وتعددية المناخ وجاذبيته المثيرة والمميزة لمعيشة الإنسان، "وهذا التناقض بوصف «حمود العودي» صنع علاقة "زئبقية" بين اليمني وأرضه (الجبلي، وآخرون، 2022، ص 150).

إن مكاناً بخواص طبيعية زئبقية كهذه، هو بمقدار ما يقدمه من إثارة الإغراء للإنسان على البقاء فيه والتمسك به، إلا أنه لا يعطيه إلا القليل من أسباب العيش التي لا يسمح بها إلا بمشقة وبجهد بشري مضن في إصلاح الأرض وريها واستثمارها، وبدون أي ضمانات للاستقرار والديمومة النسبية لعائداتها من الحاجات الضرورية الإنسانية، ذلك أن القاعدة الثابتة التي تحكم علاقة الإنسان اليمني بمحيطه المكاني والبيئي، هو الذي لا يحصل منه على فائض اقتصادي أقل بجهد بشري أكبر، هو سبب الاضطراب وعدم الاستقرار. وإذا كان العامل الطبيعي لخاصية المكان في اليمن، يعد العامل الحاسم في تشكُّل ظاهرة الهجرة المميزة لليمن بحكم تميز خواص هذا المكان المشار إليها آنفا، فإن العامل الاجتماعي في ظاهرة الهجرة بصفة عامة، هو الأكثر شيوعاً وعمومية وتأثيراً وهو القاسم المشترك بين كل المجتمعات في اليمن وغير اليمن، وهو بالنسبة لليمن أكثر فاعلية وحدة وتأثيرا في ظاهرة الهجرة والاغتراب (الجبلي، وآخرون، 2022)

إن ما أوردناه آنفاً يعد إشارة وقرينة مهمة في أن ذهنية العمل لدى الإنسان اليمني قديماً وحديثاً رسختها هذه العلاقة بين الإنسان والأرض، (فائض الإنتاج القليل) خلق بإلحاح مستمر الحاجة الدائمة للعمل وعدم التوقف، لأن ذلك يعني انتصار البيئة والأرض وهلاك الإنسان اليمني، وهذا ما لم يحصل في تاريخ هذه الجغرافيا، ظل الإنسان اليمني مشتغلا بها عاملا في ترويضها وتطويعها فشكَّل مظاهرها الخارجية وهي بدورها شكَّلت جوهره الداخلي.

إنا إذا ما افترضنا أن قلة فائض الإنتاج بوصفه بعدا اقتصاديا والبنية الاجتماعية والحالة الصراعية التي تعيشها اليمن منذ القدم بوصفهما بعداً اجتماعيا وسياسياً يمثلا عاملين هامين في تشكُّل ظاهرة الهجرة وديمومتها في المجتمع اليمني، وإذا ما افترضنا أيضا أن هذين العاملين يمثلا كفتي ميزان لاستقرار المجتمع، فإن ما أسميناه برابطة العمل سابقا التي شكَّلت (ذهنية العمل) وبنية العلاقات الاجتماعية في المجتمع اليمني والذي بدوره شكل روح التعاون والتشارك يمثل العامل الاجتماعي المتغير الذي من شأنه أن يعدل كفتي الميزان، ولهذا فقد فطن الإنسان اليمني القديم إلى ذلك مبكرا، وعرف أنه لا سبيل لتجاوز تحديات البيئة والجغرافيا والتضاريس وقهرها ولمعادلة النقص في فائض الإنتاج، إلا بالتنظيم والعمل الجماعي والتعاوني والسطلة اللامركزية والتفكير العملي الذي لا ينفي الآخر ولا يستعبده بل يوحد جهود الجماعة لتحقيق ذلك الفائض. إن هذه الذهنية العملية (الجميع يحتاج إلى الجميع) هي من جعلت نمطاً كنمط الإنتاج العبودي غير موجود في اليمن القديم كما وجد في الإقطاع الأوربي القديم أو ما يسمى بنمط الإنتاج العبودي الشرقي، وذلك يعود إلى أنه ليس من المهم من يملك الأرض (خاصة أو عامة) ولكن من الذي يقدر على زراعتها إذا لم يكن الجميع، ولهذا كونوا صفة المواطنة في دولة قتبان (أولاد عم). ويرى حمود العودي في هذا السياق أن الدلائل والقرائن المادية والعقلية والمنطقية لم تثبت بعد ولن تثبت أبدا أن مجمل مرافق الحياة السياسية والاقتصادية التي تميزت بها الحضارة اليمنية القديمة، وانطبعت بطابعها من سدود وطرق ومزارع ومدن وقصور وحصون وغيرها، قد نُفذت في نطاق الملكية الفردية البحتة أو السيطرة العبودية أو القطاعية التي عرفتها معظم المجتمعات القديمة والوسيطة (العودي، 1980).

إن الهجرات من اليمن وإن كانت قديمة في المجتمع اليمني كقدمه في تلك الأرض، إلا أن أكبر موجات الهجرات حدثت حينما تنكر اليمني لتلك التي أسميناها روح التعاون والتشارك (وذهب إلى مغالبة الطبيعة والبيئة منفرداً) بُغية السيطرة عليها، بعيداً عن الذهنية العملية التعاونية التي هي جزءا لا يتجزأ من سماته الشخصية والعقلية ومن سمات بيئته والجغرافيا التي يسكنها، والتي هي أيضا كما أسلفنا قانونه المعادل لفائض الإنتاج الذي يقض مضجعه ليل نهار، ولهذا أختلت كفتا الميزان (الاقتصادية والاجتماعية) حينما ظهر طرفا أو أطرافا حاولت التفرد بالمشهد الاجتماعي والسياسي بعيدا عن قراءة المعطيات البيئية والاقتصادية والاجتماعية، فانهارت البنية الاجتماعي (رابطة العمل) وبدورها انهارت البنية الاقتصادي، ولذا تحكي لنا النقوش والتاريخ انهيار سد مأرب، وهي حقيقية لا تكمن في السد كجدار يحجز الماء، وإنما هي نموذج ودلالة تحكي أن فترة ليست بالقصيرة جرى خلالها تفسخ روح العمل الجماعي نتيجة ما أسميناه (السيطرة الفردية) وكأن ترك السد ينهار هو عدم قيام الجميع بواجبهم نحوه أو نحو استصلاح الأرض التي يسكنوها، ولهذا يُقال في المثل الدارج "تفرقت أيادي سبأ" ففرقتهم الهجرة في أصقاع الأرض، وظلت الهجرة هي ديدن اليمني طالما ظلت ظاهرة غياب التعاون والتشارك غائبة عن الاجتماع والسياسة والاقتصاد في هذه الجغرافيا.

تخبرنا الأنثروبولوجيا وكتب التاريخ عن هجرات كثيفة خرجت من اليمن. والحقيقة أن شواهدها لاتزال حتى اللحظة دالة على ذلك، ربما كان أكبرها ما يمكن تسميته بالموسم الثاني من الهجرات اليمنية (أثناء الفتوحات الإسلامية)، الفترة التي كانت تعيش فيها اليمن ذروة الانهيار الاجتماعي والاقتصادي، كتلة بشرية ضخمة، وشح اقتصادي، وتصدع في بنية العمل واستصلاح الأرض. ولهذا كانت الفتوحات الإسلامية بمثابة طوق النجاة للخروج من ذلك المأزق. على غرار الموسم الثاني كانت قد سبقته هجرات الموسم الأول إذا صح التعبير(حادثة سد مأرب)، قبائل هاجرت بحلها ورحالها، والتاريخ يسطر الدور النّشط والأبرز الذي قامت به تلك القبائل المهاجر في الفتوحات الإسلامية شرقا وغربا، شاركت في الجيوش الفاتحة وألفت سواد تلك الجيوش، واختطت الحواضر وألفت سوادها في العراق ومصر والشام والمغرب العربي والأندلس؛ والملاحظة التي نسجلها في هذا السياق أن اليمني لو لم يكن بهذه الذهنية التي أسميناها (غلبة نشاط ذهنية الحركة والعمل) لما رأينا هذا الفعل التاريخي البارز للإنسان اليمني

في أصقاع الأرض، فاليمني وهي تسكنه هذه الذهنية النشطة التي أوجدها فعله في (الزمكان)، كانت تُشغل تلك الذهنية في مقارعة بيئته الصعبة فيتماهى نشاطه مع شخصية الجغرافيا، وحينما كان يحدث انحرافاً في ذلك التماهي بفعل عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية، كانت تحصل إما الهجرة إلى الخارج أو الاحتراب الذي يفاقم الوضع الداخلي، ولهذا جاءت الفتوحات واليمني كما أسلفنا في ذروة احترابه مع نفسه فعمقت تلك العوامل الهجرة أكثر من ذي قبل، وهو ما حدث أيضا في الهجرات الحديثة والمعاصرة نتيجة الديمومة الصراعية.

إذا كنا قد بينا سالفا أن التضاريس والبيئة فرضت العمل الجماعي وبالتالي شكَّلت ما أسميناه بالذهنية العملية، فإن الهجرة هي الأخرى قد عززت تلك الذهنية داخليا وخارجيا، على مستوى الداخل أدى ارتحال الكثير من القبائل إلى إحداث فجوة كبيرة في البنية الاجتماعية (باكورة العمل الجماعي) وهو ما ألقى بضلالة على قوى الإنتاج، بما يعني مضاعفة الجهد والعمل وإعادة تشكيل العلاقات بما يغطي تلك الفجوة، وخارجيا طبع اليمني ذهنيته وكرسها في الأرض التي ارتحل إليها فأسس المهاجرون مراكز نفوذ اجتماعية واقتصادية وتجارية كبيرة في بلدان المهجر، كما هو الحال في إندونيسيا وسنغافورة والسعودية وغيرها من دول العالم.

أرجع حمود العودي أسباب الهجرة المتكررة يمنياً إلى أن الجغرافيا لا تحتمل الزيادة في الديمغرافيا حسب مفهوم (فائض الانتاج) ، وأرجع آخرون الأسباب إلى التغير المناخي، وهذه العوامل وإن كانت مهمة لكنها ليست حاسمة لتبيان أسباب الهجرة، هناك عمق ثقافي واجتماعي للهجرة في أعماق الإنسان اليمني شكَّلته قرون من الارتحال الداخلي والخارجي الذي كان سمة الأسرة والعائلة لفترات طويلة بحثا عن الكلأ والمرعى، حتى غدت الهجرة جزء من حياة الإنسان اليمني اليومية، لا يقتصر الأمر على الارتحال إلى بلد آخر، ولا من منطقة إلى أخرى داخلية، بل أن هناك هجرة يومية يمارسها الفرد اليمني عن بيته، فجلوسه في البيت لا يكاد يتجاوز ساعات النوم وتناول وجبات الأكل أما بقية ساعاته فهي إما في عمله أو ما جماعة الأقران (العودي، 2009؛ الجلبي، وآخرون، 2022).

من الملاحظات التي لمسها الباحث في المجتمع اليمني في بلد المهجر وتكررت كون الباحث أحد المهاجرين والناشطين في العمل النقابي للجالية اليمنية، هي ظاهرة التعاون والنشاط والحركة التي يوصف بها الفرد والمجتمع اليمني، بشهادة الجهات الرسمية في البلاد والجاليات الأجنبية الأخرى، والسبب البارز الذي أدى إلى بروز تسجيل هذه الملاحظة هو مقارنتها بالجاليات الأخرى، يطغى التعاون والتعاضد بشكل يدعو للتعجب والاستفهام، ما الذي وراء هذا النشاط والتعاون؟! هناك جانب فطري يدفع اليمني للمشاركة وتقديم العون، للانسياب السهل وإقامة العلاقات وحب العمل من أجل المجموعة، هناك ذهنية انعملت فيه ولازالت، كونتها جملة من العوامل والظروف، ولهذا لا غرابة أن يقول جواد علي: " وأرض على هذا النحو - وهو يصف الجغرافيا اليمنية – وعلى هذه الشاكلة لا بد وأن تؤثر على أجسام وعلى عقول أصحابها، فجعلتهم من ثَّم من أنشط شعوب الجزيرة العربية في ميدان العمل والحيلة في كسب العيش وفي إقامة المجتمعات، وخلقهم لكثير من الاحداث التي لا يُعرف معها الكلل، وهذا يعود إلى البيئة من حولها التي مرست فيها سماتها فغالبتهم وغلبوها" (علي، 1993، ص 289).

الاستنتاجات:

يمكننا القول في نهاية هذه الدراسة، أن الطريق لايزال بعيدا للوصول إلى نتائج حاسمة في الاجتماع اليمني، لاعتبارات كثيرة نثرتها الدراسة في صفحاتها، الأمر الآخر، أنه يمكن اعتبار هذه الدراسة تشجيعاً وخلقاً لفرصة الحوار الاجتماعي العلمي، وإيجاد حالة من الحيرة الفكرية بقصد مزيد من الفهم والتفسير، وما توصلت إليه الدراسة من نتائج لا تعد يقينية ولا حاسمة.

تناولت هذه الدراسة " دور المحددات الاجتماعي في تشكَّل الذهنية لدى الإنسان اليمني"، وقد توصلت إلى مجموعة من النتائج، المتمثلة في الآتي:

1 -خلصت الدراسة إلى أن الذهنية اليمنية تشكّلت عبر تفاعل مركّب بين عوامل اجتماعية وتاريخية وجغرافية، وأن التعاونيات الزراعية والبيئة المحيطة بالجماعة كانتا عاملين حاسمين في غرس قيم التعاون والعمل الجماعي وتوجيه سلوك الفرد والجماعة، بما أفرز ما يمكن تسميته بـ«الذهنية العملية/التعاونية». وقد انعكس هذا النطم على بنية العلاقات والتفاعلات الاجتماعية، فبرزت روح العمل الجماعي والتكافل بوصفها سماتٍ أصيلة في الشخصية اليمنية.

2 -بيّنت الدراسة أن العزلة الجغرافية والتضاريس الوعرة عززتا مركزية الجماعة في مواجهة تحديات البيئة، وأن استمرار النظام القبلي وهيمنة الروابط القرابية رسّخا القيم الجمعية - وخاصة التضامن والتكافل - مع بقاء العرف والعادة مصدرًا رئيسًا للتنظيم الاجتماعي.

3 -أوضحت النتائج أن نمط الحياة التعاونية أفرز ذهنية يمنية نشطة تتسم بروح العمل والحركة، وأن جملة المحددات الاجتماعية التي أسست لهذا النمط لا تزال فاعلة حتى الوقت المعاصر، بما يعزز استمرارية بنيته وأثره في التشكّل الذهني والاجتماعي.

4 -أظهرت الدراسة أن الهجرات المتكررة، الداخلية والخارجية، تجاوزت كونها استجابة اقتصادية أو مناخية لتصبح جزءًا من الثقافة الاجتماعية، وأسهمت في تشكيل شخصية الفرد اليمني عبر تعزيز التكيّف والمرونة وسرعة بناء علاقات جديدة، فضلًا عن دورها في نقل القيم والمعارف وتبادلها، بما منح الذهنية اليمنية طابعًا ديناميكيًا متجدّدًا.

5 -أشارت النتائج إلى أن أكبر موجات الهجرة ارتبطت بتراجع روح التعاون والتشارك، حين اتجه الفرد إلى مجابهة الطبيعة والبيئة منفردًا بغرض السيطرة عليها، على نحوٍ يتعارض مع الذهنية العملية التعاونية المتجذّرة في سماته الشخصية والعقلية وفي خصائص بيئته وجغرافيته.

6 -بيّنت الدراسة أن فهم هذه المحددات الاجتماعية يُعد مدخلًا مهمًا لتوجيه السياسات التنموية والبرامج التعليمية بما ينسجم مع الذهنية اليمنية، الأمر الذي يعزز فرص فاعلية التدخلات وتحقيق التنمية الاجتماعية والمجتمعية.

7 - خلصت الدراسة إلى أن ندرة الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية حول المجتمع اليمني، ولا سيما المتعلقة بالعقلية أو الشخصية، حدّت من بناء مدخل تفسيري واضح لدراسة الذهنية والشخصية اليمنية، بما يستدعي تضافر الجهود العلمية لسد هذا الفراغ المعرفي.

التوصيات:

1 - أن فهم دور المحددات الاجتماعية التي أحطت بالاجتماع اليمني، يمكن أن يساعد في توجيه السياسات التنموية والبرامج التعليمية بما يتوافق مع الذهنية اليمنية، مما يعزز من فرص التنمية الاجتماعية والاقتصادية.

2 - أن الجماعة العلمية اليمنية بحاجة إلى أُطر نظرية وتفسيرية لفهم الديناميات الاجتماعية في المجتمع اليمني ودورها في تشكّل الذهنية اليمنية، ومحاولة تقديم مدخلاً تفسيرياً في هذا السياق من خلال قراءة تاريخ الذهنيات وتناهُج العلوم وتعاضدها للإحاطة بالظاهرة الاجتماعية.

قائمة المراجع:

الحداد، م. (2010). تاريخ اليمن العام (ج 1). صنعاء، اليمن: وزارة الثقافة.

الفراهيدي، الخليل بن أحمد. (1993). كتاب العين (ج. 4، ط. 1؛ تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي). بيروت، لبنان: مؤسسة الكتب الثقافية. (الأصل نُشر 175هـ).

الفراهيدي، الخليل بن أحمد. (1993). كتاب العين (ج. 4، ط. 1؛ تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي). بيروت، لبنان: مؤسسة الكتب الثقافية. (الأصل نُشر 175هـ).

المحاسبي، الحارث بن أسد. (1971). العقل وفهم القرآن (ط. 1؛ تحقيق: حسين القوتلي). بيروت، لبنان: دار الفكر. (الأصل نُشر 243هـ).

الجرجاني، الشريف. (1983). التعريفات (ط. 1). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية. (الأصل نُشر 816هـ).

لوغوف، جاك. (2007). التاريخ الجديد (ترجمة: محمد الطاهر المنصوري؛ ط. 1). بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.

السجستاني، أبو سليمان المنطقي. (1974). صوان الحكمة وثلاث رسائل (تحقيق وتقديم: عبد الرحمن بدوي). طهران، إيران: انتشارات بيناد فرهنك. (الأصل نُشر 380هـ).

الجابري، محمد عابد. (1984). بنية العقل العربي (ط. 1). بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

المجمع العربي للغة العربية. (1972). المعجم الوسيط (ط. 2، ج. 2؛ نخبة من اللغويين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة). بيروت، لبنان: دار الفكر.

ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. (2003). لسان العرب (ج. 10). بيروت، لبنان: دار صادر.

أوس بن حجر. (1979). ديوان أوس بن حجر (ط. 3؛ تحقيق وشرح: محمد يوسف نجم). بيروت، لبنان: دار صادر.

الجابري، محمد عابد. (1994). تكوين العقل العربي (ط. 6). بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

الحكيم، توفيق. (1983). التعادلية مع الإسلام. مصر: مكتبة مصر.

المرزوقي، عبد القادر. (2019). إشكالية الفكر والعمل للفضاء: سياقات. صحيفة الوطن. منhttps://bit.ly/3DIMkG1

العكاشة، رند. (2021). التمثيلات الذهنية في علم النفس. إي عربي من https://bit.ly/4gsAHBQ

كاظم، علاء جواد. (2012). بنية العقلية العراقية: دراسة تأويلية في الأنثروبولوجيا المعرفية. دار التنوير.

العروي، عبد الله. (2005). مفهوم التاريخ. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.

دياب، محمد. (بدون تاريخ). الثقافة والمجتمع [مادة/مذكرة غير منشورة]. كلية الآداب، جامعة بنها.

أبو غانم، فضل. (1985). البنية القبلية في اليمن بين الاستمرار والتغير. اليمن: مكتبة خالد بن الوليد للطباعة والنشر والتوزيع.

العطار، حيدر. (2020). أسس البحث لطلاب المرحلة الأولى قسم التاريخ. بوابة البحوث. تم الاسترجاع في (تاريخ الاسترجاع غير مذكور)، منhttps://www.researchgate.net/publication/339771045_ass_albhth_altrbwy

الشيبة، عبد الله. (1990). الهجر: المدينة في اليمن القديم. مجلة دراسات يمنية، (40).

المسكري، عبد الرحمن. (بدون تاريخ). تاريخ الذهنيات في عُمان: عن الحفي والمشترك والمترسب في وعينا الجماعي. جريدة عمان. تم الاسترجاع في (تاريخ الاسترجاع غير مذكور)، منhttps://bit.ly/4guiHab

الحربي، أحمد محمد. (بدون تاريخ). وظائف الجمعيات التعاونية اليمنية للمساهمة في تحقيق التنمية: الواقع والطموح (سلسلة الدراسات التعاونية رقم 4). (مكان النشر غير مذكور): الاتحاد العام لهيئات التعاون الأهلي للتطوير.

نواري، ريم. (2016). مفهوم الشخصية بين الثقافة والفعل الاجتماعي. مجلة الحكمة للدراسات الاجتماعية، 2(8)، 162-174.

الإرياني، مطهر. (1990). في تاريخ اليمن: نقوش مسندية وتعليقات. صنعاء، اليمن: مركز الدراسات والبحوث اليمني.

الإرياني، مطهر. (1996). المعجم اليمني في اللغة والتراث: حول مفردات خاصة من اللهجات اليمنية (ط. 1). دمشق، سوريا: دار الفكر.

الجبلي، أحمد، وآخرون. (2022). الآثار المتبادلة للهجرة اليمنية: التمهيد التاريخي (ج. 1، ط. 1). صنعاء، اليمن: مؤسسة الخير للتنمية الاجتماعية.

العودي، حمود. (بدون تاريخ). تجربة العمل التعاوني في اليمن بين مصداقية الناس ومكر السياسة. خيوط. تم الاسترجاع في 15-07-2024 من https://www.khuyut.com/blog/06-13-2020-07-06-pm

الجرو، أسمهان. (2003). دراسات في التاريخ الحضاري لليمن القديم. القاهرة، مصر: دار الكتاب الحديث.

العودي، حمود. (2008). نظرية الفائض في جدلية التطور الاجتماعي [ورقة عمل]. المؤتمر الأول لعلماء وباحثي علم الاجتماع، جامعة صنعاء، صنعاء، اليمن.

الحداد، محمد أحمد. (1993). تغير النسق الاجتماعي–الاقتصادي في القرية اليمنية [رسالة دكتوراه غير منشورة]. جامعة صنعاء، صنعاء، اليمن.

الشرجبي، قائد. (1990). القرية والدولة في المجتمع اليمني. بيروت، لبنان: دار التضامن للطباعة والنشر والتوزيع.

بوتول، غاستون. (1971). العقليات (ط. 5). باريس، فرنسا: المنشورات الجامعية الفرنسية.

بودون، ريمون، وآخرون. (1993). معجم علم الاجتماع (ترجمة: سليم الحداد). باريس، فرنسا: منشورات لاروس.

بيستون، الفرد، وآخرون. (1982). المعجم السبئي. بيروت، لبنان: مكتبة لبنان

الوردي، علي. (2001). شخصية الفرد العراقي: بحث في نفسية الشعب العراقي (ط. 2). لندن: منشورات دار ليلى.

بيستون، الفرد. (1974). طبيعة النظام الملكي في الحضارة اليمنية القديمة (تعريب: سلطان ناجي). عدن، اليمن: مجلة الحكمة.

ابن خلدون، عبد الرحمن. (1988). المقدمة. بيروت، لبنان: دار العودة.

لوغوف، جاك. (1999). العقليات: تاريخ مبهم (ترجمة: محمد حبيدة). مجلة فكر ونقد، (17).

جيرهولم، توماس، وآخرون. (1997). اليمن كما يراه الآخر. صنعاء، اليمن: المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية.

حبيدة، محمد. (2018). المدرسة التاريخية (برلين-السوربون-الستراسبورغ): من المنهج إلى التناهج (ط. 1). الرباط، المغرب: دار الأمان.

حميد، حسن. (2009). الذهنية العربية: الثوابت والمتغيرات—مقاربة معرفية. دمشق، سوريا: دار نينوى.

دوس، فرانسوا. (2009). التاريخ المفتّت: من الحوليات إلى التاريخ الجديد (ترجمة: محمد الطاهر المنصوري؛ ط. 1). بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.

سميث، شارلوت. (2009). موسوعة علم الإنسان (ترجمة: علياء شكري). القاهرة، مصر: المشروع القومي للترجمة.

سلطان، معاني. (2010). الهوية الحضارية في النقوش العربية القديمة. عمّان، الأردن: وزارة الثقافة.

شعبان، خضير. (2002). مصطلحات في الإعلام والاتصال (ط. 1). الجزائر: دار اللسان العربي.

طحطح، خالد. (2019). سارقو الزمن: دراسة في تطور العقليات في أوروبا خلال عصر النهضة. أسطور للدراسات التاريخية، 2019(9). الدوحة، قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

عمار، حامد. (1988). في بناء الإنسان العربي. الإسكندرية، مصر: دار المعرفة الجامعية.

عثمان، عبده علي. (1988). دور هيئات التعاون الأهلي للتطوير والمجالس المحلية في تنمية المبادرات المحلية في الجمهورية العربية اليمنية. المجلس الاقتصادي والاجتماعي في الأمم المتحدة، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، شعبة التنمية الاجتماعية والسكان.

علي، جواد. (2001). المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج. 9، ط. 4). بيروت، لبنان: دار الساقي.

غيرتز، كليفورد. (2009). تأويل الثقافات (ترجمة: محمد بدوي؛ ط. 1). بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.

غارديه، لويس. (1992). أثر الإسلام في العقلية العربية. بيروت، لبنان: دار الفكر اللبناني.

غدنز، أنتوني. (2005). علم الاجتماع (ترجمة: فايز الصياغ؛ ط. 4). بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية؛ المنظمة العربية للترجمة.

غيدينز، أنتوني. (2018). مفاهيم أساسية في علم الاجتماع (ترجمة: محمود الذوادي؛ ط. 1). بيروت، لبنان: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

فرنان، جون بيار. (2008). أصول الفكر اليوناني (ترجمة: سليم حداد). بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

العودي، حمود. (1980). المدخل الاجتماعي في دراسة التاريخ والتراث العربي: دراسة عن المجتمع اليمني (ط. 1). القاهرة، مصر: عالم الكتب.

فوكييه، بول. (1978). معجم مفردات العلوم الاجتماعية. باريس، فرنسا: المنشورات الجامعية الفرنسية.

لوغوف، جاك. (2007). التاريخ الجديد (ترجمة: محمد المنصوري؛ ط. 1). بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.

لايكوف، جورج، وجونسون، مارك. (2016). الفلسفة في الجسد: الذهن المتجسد وتحديه للفكر الغربي (ترجمة: عبد المجيد جحفة). ليبيا: دار الكتاب الجديد المتحدة.

موللر، وللتر. (1982). نقوش من معبد الإله (ود/ذم سمعم): تقارير أثرية من اليمن (ترجمة: عبد الفتاح البركاوي). صنعاء، اليمن: المعهد الألماني للآثار.

موسكاتي، سبستينو. (1957). الحضارات السامية القديمة (ترجمة: السيد يعقوب ببكر). بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

مطر، جواد. (2003). الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في اليمن القديم (ط. 1). الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: دار الثقافة العربية.

دوس، فرانسوا. (2009). التاريخ المفتّت: من الحوليات إلى التاريخ الجديد (ترجمة: محمد الطاهر المنصوري). بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة. (نشر العمل الأصلي عام 1987)

معطي، علي. (2004). تاريخ العرب السياسي قبل الإسلام: نقد النظرية السامية. بيروت، لبنان: دار المنهل اللبنانية.

نعمان، خلدون. (2004). الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في عهد الملك شمر يهرعش. صنعاء، اليمن: وزارة الثقافة والسياحة.

نيلسن، ديتلف، وهومل، فرتز، وكاناكيس، رودو. (1958). التاريخ العربي القديم (ترجمة: فؤاد حسين). القاهرة، مصر: مكتبة النهضة المصرية.

وطفة، علي. (2007). الجمود والتجديد في العقلية العربية: مكاشفات نقدية. دمشق، سوريا: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة.

هيلند، ربرت. (2010). تاريخ جزيرة العرب: من العصر البرونزي إلى صدر الإسلام (320 ق.م–630 م) (ترجمة: عدنان حسن). بيروت، لبنان: قدمس للنشر والتوزيع.

المراجع الإنجليزية:

Jeremy Smith, **An Historical Study of English Function, Form and Change**, (London: Routledge,1996) Online etymology dictionary, website, 09/06/2024 mind | Etymology of mind by etymonline